الإمام الزاهد والخليفة الراشد

عمر بن عبد العزيز



د/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

دار الدعوة

الإمام الزاهد والخليفة الراشد

عمر بن عبد العزيز

الطبعة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع القانوني: ٢٠٠٥/٥٠٥٥
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-253-364-2

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

الإمام الزاهد والخليفة الراشد

عمر بن عبد العزيز

إعداد

الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحُمَيدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن هذا الكتاب تصوير لنموذج إصلاحي كبير قام به الإمام العادل عمر ابن عبد العزيز رحمه الله، فأزال به كيانًا سياسيًا واجتماعيًا قائمًا على الظلم والعدوان والطبقية الممقوتة التي كان من أهداف الإسلام القضاء عليها، والتي تكوَّنت بعد وفاة أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه.

لقد أشبه حكام بني أمية حكام دولتي الروم والفرس، حيث قسموا الأمة إلى طائفتين: طائفة ممتازة تأخذ النصيب الأوفر من الهبات والإقطاع والمناصب والجاه، وطائفة أخرى- وهي أكثر الأمة- تعيش على أعطيات أفراد الطائفة الممتازة، أو تبقى في فقرها ودخلها القليل إن لم يتداركها الله تعالى برحمة الأغنياء.

ولقد استغل حكام بني أمية فرصة تفرق الأمة الإسلامية وعدم وجود عصبيات كبيرة تنافس عصبيتهم القوية فحكموا الناس بالقوة، ولم يرجعوا في تقسيم ثروة الأمة الهائلة لا إلى دين ولا إلى عقل سليم، ولقد استطاعوا السيطرة على الناس بملء جيوب ذوي النفوذ ومراكز القوى، حتى أصبحوا لا يفكرون في الثورة عليهم ولا بمجرد نقد سياستهم لأنهم لا يريدون أفضل من الوضع الذي هم فيه، وليذهب أفراد الأمة إلى الدمار والبؤس والشقاء ما داموا هم ومن حولهم يعيشون في ذلك العيش الرغيد.

ولقد امتدت في ذلك العهد المظلم سياط الظلم إلى أجساد بريئة وامتلأت بها السجون لمجرد قيام أصحابها بإنكار شيء من ذلك الظلم المطبق، ولقد أزهقت نفوس كثيرة أصرَّ أصحابها على قول الحق والدفاع عنه، خصوصًا في عهد الحجاج

ابن يوسف الثقفي حاكم العراق والمشرق، الذي قال عنه عمر بن عبد العزيز: لو تخابثَتْ الأمم فجاءت كل أمة بأخبثها لجاءت هذه الأمة بالحجاج بن يوسف.

ولقد تكوَّن في ذلك العهد العرف الاجتماعي على غير قواعد الإسلام، حيث أصبح من المسلم به لدى طوائف من المسلمين وجود الطبقية في المجتمع، حيث تأتي في الدرجة العليا طبقة بني أمية، وهذه الطبقة لها من الإجلال والتقدير والمهابة ما ليس لأحد سواء في ذلك كبارهم وصغارهم، وهذه الطبقة تستهلك - كما سيأتي في بعض الأخبار- جزءاً كبيراً من ميزانية الدولة.

ثم تأتي طبقة الأمراء الذين من أهم مهامهم تثبيت نظام الدولة وإن كان ذلك بإضاعة بعض أحكام الإسلام والعسف والظلم.

ثم يأتي بعد ذلك أفراد الشرطة ورجال الأمن الذين يحكمون الناس بالحديد والنار ليقبلوا بذلك النظام السياسي الجائر، وهؤلاء لا مجال للتحاكم العقلي معهم ولا للحجج والبيانات الصحيحة وإن كانت من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، لأنه قد تم اختيارهم من النوع الذي يُنفِّذ ولا يفكر، وإن فكر فإنه في الغالب يرجح جانب إرضاء الحكام على إرضاء الله تعالى.

ثم تأتي بعد ذلك مراكز القوى، وهم أفراد لهم مكانة ووجاهة في أقوامهم، وقد تم احتواؤهم بسياسة الترغيب والترهيب حتى خضعوا للوضع القائم وأخضعوا مَنْ وراءهم.

غرة بيضاء في جبين تاريخ أسود:

وفي أثناء ذلك الوضع السياسي الظالم والوضع الاجتماعي المظلم، ظهر الإمام العادل عمر بن عبد العزيز، فبدأ ينقض دعائم ذلك التاريخ الأسود بحنكة وروية وحزم وطموح، وإصرار على الوصول إلى المنهج الأعلى، جاعلاً رايته التي يسير تحتها وغايته التي يسعى إليها تطبيق الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى وإن أجلبتْ عليه قُوى الظلم والعدوان بخيلها ورَجِلها، وحرص على أن لا يجني المال إلا من حِلّه وأن لا يضعه إلا في محله، وأبطل فكرة أن الحكام لا ينجحون إلا إذا كانوا نهابين وهّابين، وصار يبني مجتمعًا صالحًا في نظراته السياسية والاقتصادية

والاجتماعيـة، واستطاع أن يُحجِّم مراكز الطبقيـة ودعائم الظلم وأن يحجرهم في نطاق ضيق، ولقد اعتــدل منهم أصحاب النفوس العالية فـارتفع مستواهم الفكري نحو الأفق الســامي الذي أراد أن يرفعهم إليه عــمر بن عبد العــزيز، وانقمع منهم الأنانيون الحاقـدون وانطووا على أنفسهم منتظرين زوال الشمــس الساطعة وحلول الظلام الحالك ليعيثوا فساداً كما تعودوا، لأنهم لا يعيشون إلا على حساب حرمان الأمة المستضعـفة، ولقد حاول بعضهـم -كما سيأتي- تهـديد أمير المؤمنين عمر بن عبد العـزيز ليغير من سياسـته المذكورة، ولكن محاولاتهم باءت بالفـشل أمام قوة عمر وحزمه.

ولقد آلت الحال بهؤلاء النفعيين الأنانيين إلى أن دبَّروا وضع السم لعمر بن عبد العزيز -كما سيأتي- وذلك لإدراكهم بأن النور الساطع الذي أعشى أبصارهم وشل بصـائرهم لا ينطفئ إلا بإفناء مـصـدره والقـضاء عليـه من أجل أن يمارسـوا دور الخفافيش التي لا تعيش إلا في الظلام.

لقد كان الحكام قـبل عمر بن عبد العزيـز يأخذون ضرائب على من أسلم، ولما أمر عمـر بوضع الجزية عن من أسلم تبين ذلك في نقص الموارد الماليـة فكتب إليه أحد الولاة يشكو إليــه من ذلك فأجابه بقوله: فَضَع الجـزية عن من أسلم قبح الله رأيك فإن الله لم يبعث مـحمداً جابيًا وإنما بعـثه هاديًا. ومع نقص الموارد بذلك، ومع توقف الفتــوح في عهد عـمر لانشغـاله بالإصلاح الداخلي -وكـانت موارد الفتــوح كبيرة- فإن بـعض الأغنياء لم يجد من يدفع إليه صـدقته «قد أغنـى عمر الناس»، فتلك الموارد الضـخمة من عائدات الفتــوح والضرائب على من دخل في الإسلام كانت تذهب إلى جيوب النفعيين من أصحاب الطبقة الممتازة، فلما ساوى عمر بن عبد العزيز بين الناس في العطاء أغنى الفقراء عن أخذ الصدقات.

لقد تحققت على يد هذا الحاكم الصالح إنجازات ضخمة من العدل والإصلاح، وإبطال المفاهيم الخاطئة وإبدالها بالمفاهيم الصائبة تحققت هذه الإنجازات الكبيرة التي تشبه خوارق العادات في مدى سنتين وأشهر.. فكيف لو بقى عشر سنوات؟!

***

إرهاصات بين يدي خلافته

لقد تولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك الإمامُ العادلُ أميرُ المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز الذي جدد الله تعالى به لهذه الأمة أمر دينها، حيث أرسى قواعد العدل وطبق السياسة الإسلامية.

لقد كان الخلفاء الذين عاصرهم عمر وكثير من ولاتهم قد كثرت في عهودهم المظالم، وعمل الولاة بأهوائهم أحيانًا من غير نظر إلى الأحكام الشرعية، فورث عمر تلك التركة الثقيلة، وأحس من أول ساعة أنه يجب عليه أن يعدِّل سياسة الدولة لتتفق مع شريعة الله تعالى، ولكن ذلك يصطدم بأهواء أفراد أسرته الحاكمة والمستفيدين من ورائهم، فلم يخش في الله لومة لائم، وشمَّر عن ساعد الجد في إصلاح الأمة وإحقاق الحق ورد المظالم، وكان حكيمًا ونزيهًا حينما طبق الحق على نفسه أولا وعلى أفراد أسرته الأقربين ثانيًا، فساعده ذلك في تطبيق الحق على بقية أفراد عشيرته من بني أمية وعلى المستفيدين من الوضع السابق.

فراسة صادقة من جده عمر رضي الله عنه:

وقبل أن نتحدث عن مواقف عمر في الإصلاح والعدل، نذكر موقفًا كريمًا لجدته من أمه وفراسة صادقة من جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أخرج أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم فيما يرويه عن شيوخه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى في خلافته عن مذق اللبن بالماء، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة فإذا بامرأة تقول لابنة لها: ألا تمذقين لبنك فقد أصبحت؟ فقالت الجارية: كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق؟ فقالت: قد مذق الناس فامذقي فما يُدري أمير المؤمنين، فقالت: إن كان عمر لا يعلم فإله عمر يعلم، ما كنت لأفعله وقد نهى عنه، فوقعت مقالتها من عمر، فلما أصبح دعا عاصمًا ابنه فقال: يا بني اذهب إلى كذا وكذا فاسأل عن الجارية -ووصفَها له- فذهب عاصم، فإذا هي جارية من بني هلال، فقال له عمر: اذهب يا بني فتزوجها، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب، فتزوجها عاصم بن عمر، فولدت له أمَّ عاصم بنت عاصم

ابن عمر بن الخطاب، فتزوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فأتت بعمر بن عبد العزيز(١).

وهكذا رأينا موقف تلك الفتاة التقية، حيث راقبت الله عز وجل الذى يعلم السر وأخفى، وأدركت أن حفظ الأمانة وأداء حقوق الناس ليس الدافع إليه والوازع من ضده هو الخوف من السلطان في الأرض، لأن السلطان ونوابه قد يغفلون عن مراقبة الناس فتتهيأ الفرصة لمن التزم بالحق من أجلهم أن ينتهز فرصة غفلتهم عنه فيتبع هواه وينطلق في غش المسلمين وظلمهم، بل أدركت أن الدافع إلى الاستقامة على الحق هو خشية الله تعالى، ومن استقرت هذه الخشية في قلبه فإنها تحول بينه وبين اتِّباع الهوى المنحرف لأن رقابة الله تعالى دائمة، وعلمه لطيف دقيق لا تخفى عليه خافية.

ولقد كان هذا الفهم الثاقب والإيمان القوي مثار إعجاب عمر، ورغبته في أن يزوج ابنه عاصمًا من تلك الفتاة الزكية رغبة في نجابة الولد، وصلاح المحضن الأول الذي تصاغ فيه تربية الأولاد، ليكونوا رجال خير وإصلاح.

وكانت فراسة صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث أنجبت تلك الفتاة بنتًا شرفت بإنجاب إمام من أعظم أئمة الإسلام في العدل والإصلاح.

وهكذا نجد الصحابة رضي الله عنهم يلتزمون بالمقياس الإسلامي وهو التقوى، فيجعلونه مقياسًا لعظمة الناس وتفوقهم، ويبنون على هذا المقياس آمالاً مستقبلية عالية كما فعل عمر حينما أمر ابنه عاصمًا بالزواج من تلك الفتاة التقية.

رؤيا صالحة من جده عمر رضي الله عنه:

وعمر بن عبد العزيز هو الأشجُّ من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رأى فيه الرؤيا الصالحة، وقد ذكر هذه الرؤيا ابن عبد الحكم فقال: واستيقظ عمر

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/٢٢، وابن عبد الحكم هو أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المصري، من كبار العلماء في مصر، ومن أجلة أصحاب الإمام مالك، ولما قدم الإمام الشافعي إلى مصر صاحبه وتتلمذ عليه، وقد ذكر شيوخه في هذا الكتاب في المقدمة وهم علماء أجلاء من أمثال الأئمة: مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان بن عيينة، ولكنه لما ساق الأخبار لم يذكر شيوخه من باب الاختصار.

من نومه فمسح النوم عن وجهه وعرك عينيه وهو يقول: من هذا الذي من ولد عمر يُسمَّى عمر يسير بسيرة عمر؟ يردِّدها مرات[١].

ورواه ابن سعد في طبقاته من خبر نافع عن ابن عمر وعن نافع عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول: ليت شعري من ذو الشين من ولدي الذي يملؤها عدلا كما ملئت جوراً، ذكره ابن الجوزي، وذكر من رواية مبارك بن فضالة عن عبد الله بن عمر أنه كان كثيراً ما يقول: ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلا[٢].

مولده ونشأته:

ذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم أنه ولد في المدينة[٣] وذكر محمد بن سعد أنه ولد سنة ثلاث وستين للهجرة، وهي السنة التي توفيت فيها أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها[٤].

وذكر ابن عبد الحكم أنه -وهو غلام صغير- كان يأتي عمه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كثيراً، لمكان أمه منه[٥].

ثم ذكر أن أمه لما أرادت اللحاق بزوجها في مصر قال لها عبد الله بن عمر: خَلِّفي هذا الغلام عندنا -يريد عمر- فإنه أشبهكم بنا أهل البيت، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، فقال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرَّ بذلك عبد العزيز وكتب إلى أخيه عبد الملك بن مروان يخبره بذلك فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر[٦].

وقد جاء في خبر آخر أن عمر طلب من أبيه عبد العزيز أن يرسله إلى المدينة ليتعلم على علمائها، وذلك فيما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر العتبي قال:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٢٢.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٥، وانظر البداية والنهاية ٩/ ١٩٦.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٤.

(٤) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٣٠.

(٥) يعني لكون أمه ابنة عاصم أخي عبد الله بن عمر.

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٤.

إن أول ما استُبين من عمر بن عبد العزيز وحرصه على العلم ورغبته في الأدب أن أباه ولي مصر وهو [يعني عمر] حديث السن يُشكّ في بلوغه، فأراد إخراجه معه، فقال [يعني بعدما خرج]: يا أبة أوَغير ذلك لعله أن يكون أنفع لي ولك، ترحّلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بآدابهم.

فوجهه إلى المدينة، فقعد مع مشايخ قريش وتجنب شبابهم، وجاءته ألطاف أبيه من مصر فجعل يقسمها بينهم، فشهره أهل المدينة بعلمه وعقله مع حداثة سنه فحسده فتيان قريش فقعدوا إليه فقالوا: كيف أصبحت يا أبا حفص؟ فقال: مهلا، إياي وكلام المَجَعَة، فشُهرت منه بالمدينة حتى كُتب بها إلى أبيه بمصر -والمجعة: القليلة عقولهم، الضعيفة آراؤهم-.

قال: ثم بعث إليه عبد الملك عند وفاة أبيه(١) فخلطه بولده وقدمه على كثير منهم، وزوّجه بابنته فاطمة، وهي التي يقول فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها ... أخت الخلائف والخليفة زوجها

فلم تكن امرأة تستحق هذا البيت إلى يومنا هذا غيرها.

قال: وكان الذين يعيبون عمر ممن يحسده لا يعيبونه إلا بشيئين: بالإفراط في النعمة والاختيال في المشية، ولو كانوا يجدون ثالثًا لجعلوه معهما، وهو قول الأحنف: الكامل من عُدَّت هفواته، ولا تُعَدُّ إلا من قِلَّة(٢).

فيكون على هذا قد بقي في المدينة بطلب من عمه عبد الله بن عمر، ثم سافر إلى أبيه في مصر، ثم عاد إلى المدينة.

وجاء في رواية أخرى بيان سبب آخر لقناعة أبيه بعودته إلى المدينة، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن بعض أهل بيته كانوا يؤملون أن يكون هو الحاكم العادل الذي رآه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المنام لتحقق بعض الأمارات فيه، فلما سقط من الدابة فشُجَّ في وجهه زاد أملهم ذلك فقال أبوه: ما ينبغي لمن كان يُرجى لما يرجى له أن يكون تأديبه إلا بالمدينة، فبعثه إليها(٣).

(١) أي أبي عمر بن عبد العزيز بن مروان.

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/١٣٧-١٣٨، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/١١٧.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٥.

وتربى عمر في أحضان العلماء الأتقيـاء حت صار متفوقًا في العلم، ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين[1].

رؤيا صادقة وعزم على الاستقامة والعدل:

ذكر سعيد بن صفوان وفادة رجاء بن حيوة على عمر بن عبد العزيز قبل خلافته إلى أن قـال: وأقام عنده أيامًـا، فكان كلمـا أصبح دخل عـلى عمـر بعد صـلاة الصبح، فيتحدثان لا يدخل عليهما أحـدٌ حتى يخرج رجاء من عنده، قال: فبينما رجاء ذات يوم عنده- وقد رأى رؤيا فأصبح وقد حفظها -قال فجعل يحدث نفسه وعمر يحـدثه، فأنكره عمر فـقال: يا أبا المقدام إني لأنكر بعض حالك اليـوم فما شأنك! قال: إن الذي ترى وإنكارك إياي لرؤيا رأيتهـا الليلة، فأنا أعجب وأحدث بها نفسي؟ فقال عمر: اقصصها رحمك الله فقال: نعم وإن لك فيها نصيبًا: رأيت الليلة كأن أبواب السمـاء فتحت، فبينا أنا أرمـقها إذ أقبل ملكان يهويان، معـهما سريرٌ لم أرَ مـثله حسنًا، حتى وضـعاه بالمدينة، ثم صعـدا وأنا أنظر إليهمـا حتى دخلا أبواب الـسماء، فلبـثا مليْـا، ثم أقبـلا ومعـهما ثيـاب بيض لم أرَ مثـلها، وشمَمْتُ عبق مـسك لم أشمْ مثله قط، فمهداها على ذلك السـرير فدنوت منهما فقلت. ما هذه الثـياب؟ قالا: هذا السندس والإستبـرق الذي ذُكر في القرآن، ثم صعـدا فلبثا مليْـا، ثم أقبلا مـعهمـا برجل أدعج العينين، ذي وَفْرة شـديد سواد الشعر، بعيـد ما بين المنكبين، مربوع الجسم، عليه هيبة ووقـار، حتى أقعداه على ذلك السرير من فوق تلك الـفرُش، فدنوت منهما فـقلت: من هذا الرجل؟ فقالا هذا محمد ﷺ، قال: فهبتُه هيبةً شديدةً: وتأخرت ناكصًا على عقبي، حتى كنت منه بمكان منظر ومسمع، فـبينا أنا كذلك إذ أتى برجل قد نهزه القـتير[2]، ضَرْب الجسم، حسن اللحم، مشدودة يداه إلى عنقه، حتى وُقف بين يديه، فأقبل رسول الله ﷺ يثني عليه فيما كان من فعاله في الإسلام، ويقول أنت صاحبي في الغار، وأنت أبو بكر الصديق، والأمر ههنا إلى غيـري، ولست أملك لك من الله شيئًا، فلم يزل قـائمًا بين يديه، ثم أمـر به فأُطلق عنه، وأجلس عند رأس الـسرير على

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٣٩.

(٢) القتير هو الشيب.

الأرض، ثم أُتي برجل حسن اللحم، نهزه القتير، مـجموعة يداه إلى عنقه، حتى وُقف بين يديه، فأقبل رسـول الله ﷺ يثني عليه بفعاله في الإسـلام، ويقول: أما إنك الفاروق الذي أعز الله عز وجل به الدين، وأنت صاحب اليهودي(١). والأمر ههنا إلى غيري، ولست أملك لك من الله شيئًا، فلم يزل قائمًا بين يديه مليًا، ثم أُطلق عنه وأجلس مع أبي بكر، فمـا زال كذلك يؤتى بخليفة خليفـة حتى أفضى الأمر إليك، فلما سـمع عمر ذلك منه ارتاع فاستوى جالسًـا ثم قال: يا أبا المقدام فـماذا صُنع بي؟ قـال: أُتي بك مجـموعـةً يداك إلى عنقك، ثم وُقـفت بين يديه طويلاً ثم أُمر بك فأطلق الغُل، ثم أُجلست مع أبي بكر وعمر بن الخطاب، فاشتد عجب عمر بن عبد العزيز لرؤيا رجـاء بن حيوةَ ثم قال: يا أبا المقدام والله لولا ما أثق به من صحبتك وورعك، وجدك واجتـهادك، ووفائك وصدقك، لانبأتك أني لا آلي شيئًـا من أمر الخلافة أبدًا، ولكني قد سمـعت كلامك ورؤياك، وما أخلق بي، سـوف أبتلى بأمر هذه الأمـة. فـوالله لئن ابتُليت بذلك وإنهـا شرف الدنيـا لأطلبن بها شرف الآخرة(٢).

---

(١) يعني ابن سعية الذى غلظ فى الكلام مع النبي ﷺ فانتهره عمر وهدده.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٣٩-١٤١.

من مواقفه في إمارته على الحجاز

لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولاه على الحجاز من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين[١].

استشارته فقهاء المدينة:

قال محمد بن سعد: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزّناد عن أبيه قال: لما قدم عمر بن عبد العزيز المدينة واليًا عليها كتب حاجبه الناسَ ثم دخلوا فسلموا عليه، فلما صلّى الظهر دعا عشرة نفر من فقهاء البلد: عُرْوة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله بن عُتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وأبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني دعوتكم لأمر تُؤجَرون عليه وتكونون فيه أعوانًا على الحقّ، ما أريد أن أقطع أمرًا إلاّ برأيكم أو برأي مَنْ حضر منكم فإن رأيتم أحدًا يتعدّى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأُحَرج بالله على أحد بلغه ذلك إلاّ أبلغني. فجزّوه خيرًا وافترقوا[٢].

وهذا الخبر يدلنا على قوة إيمان عمر بن عبد العزيز وحبه البالغ لتطبيق الإسلام كاملاً، حيث إن علماء الدين هم أخبر الناس بالإسلام، ففي استشارتهم والأخذ بحكمهم أمان من الوقوع في الخطأ والانحراف.

إجلاله سعيد بن المسيب:

قال ابن عبد الحكم: وأرسل عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة رسولاً إلى سعيد بن المسيب رحمه الله يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميرًا ولا خليفة، فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك فأخذ نعليه وقام إليه من وقته، فلما رآه قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك

(١) تاريخ دمشق ٤٥/١٣٩.

(٢) طبقات ابن سعد/ ٥/ ٣٣٤، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٤١.

رسولنا عن حاجتنا فإنا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ إنما أرسلناه ليسألك، ولم يَرَ سعيد أنه يسعه التخلف عنه[1].

وهذا موقف عظيم من عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تعظيم علماء الدين ورعاية حقهم، فالعلم يُؤتَى إليه ولا يأتي، والعلماء يُقصدون، ولا يَقصدون غيرهم، لأن العلم لا يؤثِّر ولا يُعطى نتائجه المطلوبة إلا إذا تواضع له طالبوه، وأصبح جَوُّه مُفعمًا بالحب والاحترام لحملة العلم.

ولقد كان عمر موفقًا حينما اعتذر للعالم الربانى سعيد بن المسيب وأصر على أن يذهب إليه رسوله ليسأله وهو في مجلسه احترامًا له والتماسًا لبركة العلم إذا أحيط بما يلزم له من ظروف وأسباب.

كما كان سعيد بن المسيب موفقًا حينما استجاب لدعوة عمر وهو الذي لم يستجب لدعوة أحد قبله ولا بعده.. كان موفقًا لأنه أظهر توقير الوالي العادل وتفخيم أمره، وفي ذلك ما فيه من عونه على الاستقامة على العدل، ودفع الناس إلى طاعته وتثبيت أمره في الولاية.

استخلافه وموقف لرجاء بن حيوة:

قال ابن سعد رحمه الله تعالى: أخبرنا على بن محمد عن جرير بن حازم عن هزّان بن سعد قال: حدثني رجاء بن حيوة قال: لما ثقل سليمان بن عبد الملك رآني عمر في الدار أخرج وأدخل وأتردد فدعاني فقال لي: يا رجاء أذكرك الله والإسلام أن تذكرني لأمير المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك، فوالله ما أقوى على هذا الأمر، فأنشدك الله إلا صرفت أمير المؤمنين عني. فانتهرته وقلتُ: إنَّك لحريص على الخلافة لتطمع أن أشير عليه بك. فاستحيى ودخلتُ، فقال لي سليمان: يا رجاء من ترى لهذا الأمر وإلى من ترى أن أعهد؟ قلت: يا أمير المؤمنين اتق الله فإنّك قادم على الله وسائلك عن هذا الأمر وما صنعت فيه. قال: فمن ترى؟ فقلت: عمر بن عبد العزيز. قال: كيف أصنع بعهد أمير المؤمنين عبد الملك إلى الوليد وإليَّ في ابنَى عاتكة أيهما بقى؟ قلت: تجعلهما من بعده. قال:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/٢٦.

أصبتَ ووفقتَ، جئني بصحيفة. فأتيته بصحيفة فكتب عهد عمر ويزيد من بعده وختمها، ثم دعوتُ رجالاً فدخلوا عليه فقال لهم: إني قد عهدتُ عهدي في هذه الصحيفة ودفعتُها إلى رجاء وأمرتُه أمري وهو في الصحيفة، اشهدوا واختموا الصحيفة. فختموا عليها وخرجوا فلم يلبث سليمان أن مات فكففتُ النساء عن الصِياح وخرجتُ إلى الناس فقالوا: يا رجاء كيف أمير المؤمنين؟ قلت: لم يكن منذ اشتكى أسكنَ منه الساعةَ. قالوا: لله الحمد! فقلت: ألستم تعلمون أن هذا عهد أمير المؤمنين وتشهدون عليه؟ قالوا: بلى، قلت: أفترضون به؟ قال هشام: إن كان فيه رجل من ولد عبد الملك وإلاّ فلا. قلت: فإنْ فيه رجل من ولد عبد الملك؟ قال: فنعم إذًا. قال فدخلتُ فمكثتُ ساعةً ثم قلتُ للنساء اصرخن، وخرجتُ فقرأتُ الكتاب والناس مجتمعون وعمر في ناحية الرواق.

وقال: أخبرنا عليّ بن محمد عن يعقوب بن داود الثقفي عن أشياخ من ثقيف قال: قُرِئَ عهد عمر بعد وفاة سليمان بالخلافة وعمر ناحيةً وهو بدابق[1]. فقام رجل من ثقيف يقال له سالم من أخوال عمر. فأخذ بضبعه فأقامه فقال عمر: أما والله ما الله أردتَ بهذا ولن تصيب بها مني دنيا[2].

---

(١) يعني كان قبل ذلك بدابق.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٣٣٩-٣٤٠، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/١٥٧.

تقديره أهل الفضل

تقديره ولد قتادة بن النعمان:

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: وأُصيبت يومئذ[1] عين قَتادة بن النُّعمان حتى وقعت على وَجنتَه. قال قتادة بن النعمان: فجئت رسول الله ﷺ فقلت: أي رسول الله، إنَّ تحتي امرأةً شابة جميلة أحبها وتُحبني وأنا أخشى أن تقذَر مكان عيني. فأخذها رسول الله ﷺ فردّها فأبصرت وعادت كما كانت، فلم تضرب عليه ساعةً من ليل ولا نهار، وكان يقول بعد أن أسنَّ: هي والله أقوى عينَيّ! وكانت أحسنَهما[2].

وقال الحافظ ابن حجر: أخرج الدارقطني وابن شاهين من طريق عبد الرحمن ابن يحيى العذري عن مالك عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه أصيبت عينه يوم أحد فوقعت على وجنته فردها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه.

قال: وأخرجه الدارقطني والبيهقي في الدلائل من طريق عياض بن عبد الله بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري وذكر نحوه[3].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلا:

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه ... فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الردِّ
فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حُسْنَها عينًا ويا حُسْنَ ما رَدّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لاقَعْبان من لبن ... شِيْبَا بماء فعادا بَعْدُ أبوالا

---

(١) يعني يوم معركة أحد.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٤٢. وأخرجه ابن هشام مختصرًا -سيرة ابن هشام ٣/ ٣٣-.

(٣) الإصابة ٣/ ٢١٧، رقم ٧٠٧٨.

ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه[1].

وولد قتادة هذا لم يُذكر اسمه في هذه الروايات، لكن جاء في رواية ذكرها الحافظ ابن حجر: قال عاصم: فحدثت به عمر بن عبد العزيز، فذكر البيت الذي تمثل به عمر[2]، وهذا يعني أن عاصم بن عمر بن قتادة المؤرخ المشهور هو صاحب القصة، ويكون قد انتسب إلى جده.

ففي هذا الخبر موقف لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه رضي الله عنه في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي، وذلك بتقدير أهل الفضل والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة رضي الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية.

ولقد كان ولده بارعًا حينما صور هذا المشهد بذينك البيتين من الشعر اللذين ارتجلهما في الرد على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما سأله عن اسمه، وكان عمر أيضًا بارعًا في جوابه واستشهاده ببيت الشعر الذي استشهد به.

تقديره زياد مولى ابن عياش:

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في التواضع وتقدير العلماء ما جاء في رواية ابن عبد الحكم أنه قال: وقدم عليه زياد مولى ابن عياش وأصحاب له، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: والأولى لم تضرني، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال: إني أُعْظِم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضى زياد ما يريد خرج، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم، فنظر إليه

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٣٥، وانظر عيون لأثر ٢/ ١٤، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٩٦.

(٢) الإصابة ٣/ ٢١٧، رقم ٧٠٧٨.

خازن بيت المال فاقتحمَـتْه عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه -وهو به غير عـارف- ففعل الخازن مـا أمر به، فدخل زياد فأخـذ لنفسه ولأصحـابه بضعًا وثمانين درهمًا، أو بضعًا وتسعين درهمًا، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمَن يسلط على بيت المال(١).

ففي هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عـبد العزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين، فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين، والمناصب لها فتنة يـقع في حبائلها من اغتـروا بالجاه والمنزلة الدنيوية، أمـا أقوياء الإيمان فإن شخصيـتهم لا تتغير بعد المنصب بل يظلون على مـا هم عليه من التواضع، وربما زادوا تواضعًا في مقابلة احترام الناس لهم.

ثم هو ثانيًـا نزل عن مكانه حتى لا يعلو ذلك العـالم الرباني زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بـن أبي ربيعة، وكون ذلك العالم من الموالي لا يُنزل من قدره عند عمر فإن العِبْرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب.

وموقف كريم لذلك العالم الرباني حـيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مُكِّن منه، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع.

وحينما تكون النفوس كـبيرة والعقول راجحة فإنهـا تعفُّ عن متاع الدنيا الذي يتنافس عليه الصـغار، وتطمح ببصرها نحـو نعيم الآخرة الخالد الذي يتنـافس فيه الكبار.

إكرامه من ينتسبون إلى علي رضي الله عنه:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب. قال: حـدثني يزيد بن عمر بن مورق قـال: كنت بالشام وعمر بن عـبد العزيز يعطي الناس، فـتقدمت إليه فـقال لي: ممن أنت؟ قلت من قـريش، قال من أي قـريش؟ قلت من بني هاشم. قـال من أي بني هاشم؟ قـال فسكت، فقال من أي بني هاشم؟ قلت مولى علي. قال من علي: فسكت، قال:

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٥٣، وأخرجه الإمام أحمد وذكر نحوه -الزهد/ ٢٩٩، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦١.

فوضع يده على صدري وقال: وأنا والله مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ثم قال: حدثني عدة أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول: «من كنت مولاه فعلي مولاه» ثم قال: يا مزاحم كم تعطي أمثاله؟ قال: مائة أو مائتي درهم، قال أعطه خمسين دينارًا، وقال ابن أبي داود: ستين دينارًا لولايته علي بن أبي طالب، ثم قال: الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك[1].

وهذا موقف يذكر لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حيث حفظ حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأكرم وفادة ذلك الرجل وفضله على غيره في العطية لكونه مولى لعلي، وفي هذا الخبر تصوير للإرهاب الذي بثه بنو أمية في قلوب الناس فيما يتعلق بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وذريته، حيث لم يجرأ ذلك المولى على ذكر انتسابه إليه في بادئ الأمر.

***

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٦٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٢.

نماذج من جرأته في الحق وحزمه وحكمته

إنكاره على الوليد بن عبد الملك في الحكم بالهوى:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: ودخل عمر بن عبد العزيز على الوليد ابن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة فإذا خلا لك عقلك واجتمع فهمك فسلني عنها، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم إذا اجتمع لك ما أقول، فإنك أحق أن تفهم.

قال: فمكث أيامًا ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وإن عمالك يقتلون ويكتبون: إن ذنب فلان المقتول كذا و كذا، وأنت المسئول عنه، والمأخوذ به. فاكتب إليهم أن لا يقتل أحدٌ منهم أحدًا حتى يكتب إليك بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك قال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. عليَّ بكتاب فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم فلم يَحْرَجْ من ذلك إلا الحجاج، فإنه أمضَّه، وشقَّ عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك فقال: من أين دُهينا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا، فأُخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك فقال: هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره.

قال: ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حروري جاف من بكر بن وائل، ثم قال له الحجاج: ما تقول في معاوية؟ فنال منه. قال له: ما تقول في يزيد؟ فسبَّه. قال: فما تقول في عبد الملك، فظلَّمه قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أجورُهُم حين ولاَّك وهو يعلم عداءك وظلمك.

قال: فسكت عنه الحجاج وافترصها منه ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لديني، وأرعى لما استرعيتني وأحفظ له من أن أقتل أحدًا لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه. فدخل

الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد: ما تقول في؟ قال: ظالم جائرٌ جبار. قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال جبار عات قال: فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريّان: اضرب عنقه فضرب عنقه.

قال: ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال: يا غلام اردد عليّ عمر، فرده عليه فقال: يا أبا حفص ما تقول بهذا؟ أصبنا فيه أم أخطأنا؟ فقال عمر ما أصبت بقتله، ولغيرُ ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته، فقال الوليد. شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري أفتستحلُّ ذلك؟ قال: لعمري ما أستحلُّه، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مُغضبًا، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أن سيأمرني بضرب عنقك. فقال عمر: ولو أمرك كنت تفعل؟ قال: إي لعمري قال عمر: اذهب إليك(١).

فهذا موقف جليل من عمر بن عبد العزيز في الصدع بالحق أمام الوليد بن عبد الملك الذي كان شديد البطش وفي حال من الغضب الشديد، ولكنه كان بين أمرين: أن يتعرض لسخط الوليد وعذابه إن جهر بالحق، أو أن يتعرض لسخط الله جل وعلا وعذابه إن جهر بالباطل، فآثر طلب رضوان الله سبحانه واجتناب سخطه وعذابه فكفاه شر عباده

مشورته على سليمان بن عبد الملك في الحكم:

قال أبو محمد ابن عبد الحكم: وشاور سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز في رجل سب سليمان فقال: ما ترى فيه؟ فقال من حوله: اكتب بضرب عنقه -وعمر بن عبد العزيز ساكت- فقال: مالك لا تتكلم يا عمر؟! فقال: أما إذا سألتني فلا أعلم سبَّةً أحلت دم مسلم إلا سبة نبي، قال: فقاموا وقام فقال سليمان: لله بلادك يا عمر لو قرشي طُبختَ في مرقته لأنضجتَها(٢).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣٤-١٣٦، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٥٢.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣١-١٣٢، والمقصود بالمرقة اللحم، والمراد وصفه بالقوة والحزم.

ولقد حدث في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن رجلاً من الخوارج شتمه، كما ذكر ذلك ابن عبد الحكم قال: وحكَّم رجل في مسجد رسول الله ﷺ[1] -وأبو بكر بن محمد في صلاته- فقطع عليهم الصلاة وشهر السيف. فكتب أبو بكر إلى عمر. فأُتي بكتاب عمر فقرئ عليه فشتم عمر والكتاب ومن جاء به. فهمَّ أبو بكر بضرب عنقه ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه وأنه همَّ بقتله. فكتب إليه عمر: لو قتلته لقتلتك به، فإنه لا يُقتل أحدٌ بشتم أحد إلا أن يشتم النبي ﷺ، فإذا أتاك كتابي هذا فاحبس عن المسلمين شره، وادْعُه إلى التوبة في كل هلال، فإذا تاب فخلِّ سبيله. فلم يزل في الحبس حتى هلك عمر فضرب يزيد ابن عبد الملك عنقه.

وهكذا كان علم عمر بن عبد العزيز وورعه عاصمين له من الظلم، فالورع وحده لا يكفي في العصمة بدون العلم بالشرع لأن المسلم بدون العلم قد يقع في المخالفات عن جهل، والعلم وحده لا يكفي لأن المسلم قد يعلم الحكم ولكنه لا يطبقه اتباعًا للهوى، وقد تميز عمر بن عبد العزيز في معاملة الخوارج بالعدل والحكمة.

إنكارة على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق:

قال أبو محمد ابن عبد الحكم: وقدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيمًا، فقال لعمر بن عبد العزيز: كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال: رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم[2].

فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن عبد الملك، فقد كان سليمان -لجهله بدقائق أحكام الشريعة في مجال الإنفاق- يظن أنه بإنفاقه ذلك المال الكثير على الرعية قد عمل صالحًا، فأفاده عمر بن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك المال لغير مستحقيه وحرم منه أهله.

إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه:

ذكر ابن عبد الحكم رحمه الله في روايته عن شيوخه قال: وكلَّم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك،

---

(١) يعني قال: لا حكم إلا لله.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣١.

فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب في ذلك كتابًا منعهن ذلك، فتركه يسيرًا ثم راجعه، فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر فقال سليمان لغلامه: إئتني بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبالمصحف دعوتَ يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمان أيوب، فقال عمر: إن كان جهل فما حلُمْنا عنه؟[1].

فهذا موقف من مواقف الجرأة في قول الحق التي يُحْمد لعمر حيث اعتبر سليمانُ بن عبد الملك كتابة أبيه شرعًا لا يمكن تغييره، فنبَّهه عمر إلى أن الكتاب الذي لا يُنقض ولا يغيَّر هو كتاب الله تعالى وحده.

وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذين ورَّثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يَعتبرون فيه قضاءهم شرعًا نافذًا من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته.

وموقف يذكر لسليمان حيث وبَّخ ولده الذي هدد عمر أن قال كلمة الحق، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له، كما أن من فضائله جعل عمر بن عبد العزيز مستشارًا له ومن خاصته الأقربين، ثم عقد الخلافه له من بعده.

عزله ولاة السوء:

إن من أهم المواقف الجريئة التي قام بها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله إقدامه على عزل ولاة السوء الذين اشتهروا بالظلم، وكان أول عمل قام به عزل أسامة بن زيد التنوخي ويزيد بن أبي مسلم، قال ابن عبد الحكم في ذلك: وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي، وكان على خراج مصر، وأمر به أن يحبس في كل جند سنة، ويقيد ويحل عن القيد عند كل صلاة، ثم يرد إلى القيد، وكان

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ٣١ وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/٢٩.

غاشـمًا ظلومًا معـتديًا في العقـوبات بغير مـا أنزل الله عز وجل يقطع الأيدي في خلاف مـا يؤمـر به، ويشق أجواف الدواب فـيدخل فـيهـا القطائع[1] ويطرحهم للتمـاسيح، فـحُبس بمصر سنة، ثم نـقل إلى أرض فلسطين فحبس بـهـا سنة، ثم مات عمر رحمه الله وولي يزيد بن عبد الملك فردّ أسامة على مصر.

قال: وكتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن أفريقية وكان عامل سوء، يُظهر التألُّه والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جلَّ أو صغر من السيرة بالجور والمخالفة للحق، وكان في هذا يُكثر الذكـر والتسبيح، ويأمر بالقـوم فيكونون بين يديه يعذَّبون وهو يقول: سـبحـان الله والحمد لله، شُـدَّ يا غلام موضع كـذا وكذا لبـعض مواضع العـذاب، وهو يقول لا إله إلا الله والله أكـبر شـدَّ يا غلام مـوضع كذا وكـذا، فكانت حالته تلك شر الحالات[2]

وهكذا كان أول عمل قام به عمر هو عزل هذين الواليين الظالمين، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم أنه كتب كتابيْ عزلهمـا بعد دفن سليمان بن عبد الملك وقبل رجوع عمر إلى بيته، مما يدل على شدة اهتمامه بإقرار العدل ورفع الظلم.

فهذان الواليان قد نسيا عبوديتهما لله تعالى، فلم يصاحبهما الشعور بأنهما ومن فوقـهما في المسـئولية منفذون لشـريعة الله تعالى، مـستسلمون لأوامـره، بل كان الشعور الذي يسيطـر عليهما هو محاولة إرضاء طمـوحهما نحو الطغيـان والتجبر على الرعية، وإرضاء من فوقهما من المسئولين لاعتقادهما بأن إذلال الناس يقربهما من المسئولين.

وهذا الشعـور الضاغط الذى يلازم الطغـاة ويهيـمن على تفكيرهم ينسـيهم أي تفكير نحو إصلاح الرعية والإحسان إليهم لأن همهم منصرف إلى مدى البراعة في إتقان مجال النفاق والمداهنة لمن هم فـوقهم، وتحصيل رضاهم بأي ثمن، وإن كان يترتب على ذلك سخط الله تعالى عليهم، وكراهية الناس لهم.

وفي الخبر الأخير مثل من التضليل بالتظاهر بالتدين حيث يُكثر ذلك الوالي من التسـبيح والتهليل والتكبـير، في الوقت الذي يتـسلَّى فيه برؤية المعـذبين، ويُصدر

---

(١) لعل المراد الأيدي المقطوعة.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٣٧-٣٨.

أوامره بالتشديد في تعذيبهم، وهذا جهل منه وضلال، ففي الوقت الذي يقول فيه لا إله إلا الله، ينطق عمله الظالم بتعظيم غير الله تعالى؛ لأن الله جل وعلا لا يرضى بالظلم، وإنما ينطوي فكر هذا الوالي الظالم على إرضاء شهوة الجبروت والطغيان في نفسه أو نفوس من يعمل لكسب رضاهم.

وإذا كان يقول: الله أكبر، فكيف لم يجعل الله تعالى نُصْبَ عينيه وهو يعذب الناس؟ فهل كان الله عز وجل أكبر في فكره حقًا، أم كان الأكبر هُم من يعظمهم من دون الله تعالى؟

وهذا الاتجاه له نتائجه الخطيرة على عقيدة المسلمين وسلوكهم، ولهذا كان غضب الإمام العادل عمر بن عبد العزيز، فإنه لم يكن بمعزل عن واقع الأمة قبل الخلافة، فلما تولى أمر المسلمين سارع إلى عزل الولاة الظَّلَمة الذين يعرقلون سير المجتمع نحو الصلاح.

قوته في الرجوع إلى الحق:

ذكر الحافظ ابن عساكر من خبر يحيى بن سعيد وربيعة بن أبي عبد الرحمن قالا: كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما من طينة أهون علي فكًا، ولا من كتاب أيسر علي ردًا من كتاب قضيت به ثم أبصرت أن الحق في غيره فنسخته[(١)].

فهذا يدل على تغليبه نداء العقل السليم على نداء العواطف، وذلك مبعثه قوة ملاحظة الهدف الإسلامي الأعلى وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة، فإذا كان الإيمان بهذا الهدف قويًا فإنه يتكون لدى صاحبه عزوف عن اتباع هوى النفس وقوة في الشخصية تبعث على عدم المبالاة بانتقادات الناس ولا فيما قد يتعرض له الجاه من من اهتزاز لدى بعض الناس.

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر حسن بن القاسم الأزرقي: أنه كان عند عمر بن عبد العزيز ونفر من قريش يختصمون إليه فقضى بينهم، فقال المقضي عليه: أصلحك الله إن لي بينة غائبة، فقال عمر: إني لا أؤخر القضاء بعد

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٩٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦١.

أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت فإن أتيتني ببنية وحق هو أحق من حقهم فأنا أول من رد قضاءه على نفسه[1].

تلذذه بتنفيذ الحق:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي بكر بن عمرو بن حزم قال قال لي عمر ابن عبد العزيز: ما وجدت في إمارتي هذه شيئًا ألذ من حق وافق هواي[2].

وهكذا يعلن العظماء عن مواقع ملذاتهم.. إنهم لا يتلذذون بمتاع الدنيا الزائل مهما لمع بريقه وقويت جاذبيته، ولكنهم يعشقون المعاني السامية والمثل العالية التي من أبرزها تنفيذ الحق مع انشراح النفس له.. إنها متعة روحية عالية لا يتذوقها إلا من صفا فكره وسمت مطالبه.

بيانه مهمة الحاكم:

من مواقفه رحمه الله في بيان مهمة الحاكم قوله في إحدى خطبه: أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل إليكم كتاب، فما أحل الله تعالى على لسان نبيه ﷺ فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه ﷺ فهو حرام إلى يوم القيامة ألا إني لست بقاض، وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل، لست بخير منكم، ألا وإنني أثقلكم حملاً، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم[3].

فقد بين رحمه الله أن مهمة الحاكم أنه منفذ لشريعة الله تعالى في الأرض، وذلك في أمور سياسة الأمة الداخلية والخارجية وأمور الجهاد لحماية الأمة ولتبليغ الإسلام، ثم في تنفيذ أحكام الإسلام التي يحكم بها القضاة كإقامة الحدود ورد المظالم، ثم في الإشراف والرقابة على سائر أمور الأمة.

وفي تحديد مهمة أمير المؤمنين بكونه منفذًا لشريعة الله تعالى بيان للخط السياسي الذي يجب أن يسير عليه، فهو ليس مشرعًا مع الله جل وعلا، ولا يجوز له أن يتأخر في تنفيذ شريعة الله تعالى.

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٦.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٢٠٧.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤١-٤٢، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٧١.

ثم بين أنه -من ناحية المصدر الذي يتلقى منه- مُتَّبِع للكتاب والسنة ومنهج الخلفاء الراشدين وليس بمبتدع شيئًا لم يُسبق إليه، فإذا أستنكر بعض الناس وجوه الإصلاح التي يقوم بها فليس ذلك لأنها أمور مبتدعة وإنما ذلك لكون بعض السنن أُمِيتت، وأُحيي الناس بدلاً منها البدع، فصار المعروف منكراً والمنكر معروفًا عند بعض الناس.

ثم بين أن طاعة السلطان ليست مطلقة وإنما هي مقيدة بطاعة الله سبحانه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإذا أمر الحاكم بأمر يتعارض مع شريعة الإسلام فلا يجوز تنفيذ أمره بل يجب تنبيهه ليرجع إلى الحق، فينقذ نفسه وينقذ أمته من مخالفة أمر الله تعالى.

ثم بين أنه لا تلازم بين المسئولية والخيرية، فليس كون الإنسان مسئولاً يُخوِّله أن يكون خيرًا ممن هم تحت مسئوليته، وإنما كلما عظمت المسئولية كانت التكاليف أشق وأثقل، فمن كان مسئولاً عن أسرته فقط ليس كمن هو مسئول عن إدارة أو إمارة، وصاحب الولاية العظمى هو أثقل المسلمين حملا، لأن كل مسئول يأتي يوم القيامة فيناقَش الحساب عن رعيته التي استرعاه الله إياها، كما قال النبي ﷺ «ما من وال على عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه، فكَّه عدله أو أوبقه جوره» أخرجه الإمام أحمد[1].

ولقد كان عمر بن عبد العزيز بهذا الكلام دقيق الفهم لحقيقة الولاية حيث فهم أنها مَغْرم وليست بمغنم، وأنها لا تزيد صاحبها شرفًا ولا رفعة، وإنما هي ابتلاء بعمل ثقيل متواصل، إن أداه صاحبه على ما يُرضي الله تعالى كان عملا صالحًا وأصبح نعمة على صاحبه، ودخل في زمرة من قال عنهم رسول الله ﷺ «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. . وذكر منهم الإمام العادل»[2]، وإن عمل فيه بما يسخط الله تعالى كان عملا سيئًا وكان نقمة على صاحبه ودخل في زمرة من

---

(١) الفتح الرباني ٢٣/ ١٤- ورجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح البخاري رقم ١٤٢٣ الزكاة (٣/ ٢٩١)، صحيح مسلم، زكاة رقم ١٠٣١ (ص٧١٥).

قال فيهم رسول الله ﷺ «اللهم من وَلي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه»[1].

ثم ختم خطبته ببيان أن أفضل العبادة فعل الواجبات واجتناب المحرمات، وذلك مقتبس من قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه»[2] وذلك يشمل فعل الواجبات واجتناب المحرمات.

وهذه الجملة تدل على عمق فهم عمر لشمول العبادة حيث جعل منها ترك المحرمات، وعلى فقهه حيث قدم ذلك على فعل النوافل.

***

(١) صحيح مسلم رقم ١٨٢٨، الإمارة (ص١٤٥٨).

(٢) صحيح البخاري، الرقاق، رقم ٦٥٠٢ (١١/ ٣٤٠).

من أخباره في العدل والاهتمام بالمسئولية

رغبته في التأسي بجده عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من خبر جعفر بن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر[(١)]: أما بعد فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من هذا الأمر عن غير مشورة ولا طلب له ولكن كان ما قدر الله عز وجل فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث إلي بكتب عمر بن الخطاب وقضائه وسيرته في أهل العهد وأهل الذمة فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن أعانني الله على ذلك والسلام، فكتب إليه سالم: جاءني كتابك تذكر أن الله عز وجل ابتلاك بما ابتلاك به من هذا الأمر من غير طلب ولا مشورة كان منك ولكن ما كان قدر الله أن يبتليك، فأسأل الله الذي ابتلاك بما ابتلاك به أن يعينك عليه فإنك لست في زمان عمر وليس عندك رجال عمر، فإن نويت الحق وأردته أعانك الله عليه وأتاح لك عمالا وأتاك بهم من حيث لا تحتسب فإن عون الله على قدر النية، فمن تمت نيته في الخير تم عون الله له، ومن قصرت نيته قصر من العون بقدر ما قصر منه والسلام[(٢)].

فهذا طموح من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما أراد التأسي بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أحكام أهل الذمة، حيث إنه في عهد قد تقررت هذه الأحكام فيه.

وما جاء في جواب سالم بن عبد الله بن عمر لا يعتبر تيئيسًا لعمر بن عبد العزيز، وإنما هو تذكير له بما يتطلبه ذلك التأسي من التكامل، حيث إن تطبيق الأحكام الشرعية لا يؤدي مقاصده إلا إذا كان الولاة الذين سيتولون التنفيذ على مستوى هذه الأحكام فهمًا وقناعة ومقدرة على التنفيذ، وقد أشار سالم إلى ما يمحو هذا التيئيس ويفتح باب الأمل، وذلك بصلاح نية المسئول الأعلى وتوجهه

---

(١) جاء في كتاب الزهد «سالم بن عمر» وصوابه ما أثبت لأن سالما هو ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٢) الزهد / ٣٠١-٣٠٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٢٢.

الصادق نحو الإصلاح، فإن صلاح النية في ذلك يترتب عليه عون الله تعالى وتوفيقه إلى اختيار هؤلاء الولاة المتقين الذين يكونون عونًا لأمير المؤمنين على معرفة الحق وتنفيذه.

تذكيره بالحساب الأخروي:

نقل الحافظ ابن كثير عن الشعبي قال: حج سليمان بن عبد الملك، فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره!! فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم وهم خصماؤك عند الله، فبكى سليمان بكاءً شديدًا، ثم قال: بالله أستعين[1].

فهذا التذكر السريع من عمر بن عبد العزيز لمشاهد يوم القيامة يدل عل عمق يقينه، حيث قارن سريعًا بين ما رآه من المشهد الدنيوي وما ينتظر من الحساب الأخروى، فذكَّر أمير المؤمنين سليمان بمسئوليته عن جميع المسلمين.

وعظه سليمان بن عبد الملك في رد المظالم:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر مكي بن إبراهيم قال: كنا عند عبد العزيز بن أبي رواد في المسجد فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق، ففزع القوم فتفرقنا، فلما سكنت عدنا، فقال عبد العزيز: خرج سليمان بن عبد الملك يومًا إلى بعض البوادي فأصابهم نحو من هذا ففزع سليمان ونادى يا عمر يا عمر وكانوا -يعني بني أمية- إذا أصابتهم شدة فزعوا إلى عمر بن عبد العزيز، فإذا عمر ينادي ها أنا ذا. قال: ألا ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين، قال وما هو؟ قال قوم صحبوك في مظالم لهم لم يصلوا إليك، قال فجلس سليمان فرد المظالم[2].

وهكذا كان سلوك عمر بن عبد العزيز في التذكر والاعتبار عبرة لمن حوله، فقد كان لتذكيره سليمان بن عبد الملك بعذاب الله تعالى أثر في خشيته وإنابته، وقد كان من أثر ذلك أن وصل عمر إلى تذكيره بالعدل ورد الحقوق إلى أصحابها.

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ١٨٧.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٣٣.

اتخاذه رقباء على نفسه ليستقيم على الحق:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عمرو بن مهاجر قال قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟!(١).

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي حازم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز قال: انظرو رجلين من أفضل من تجدون، فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة ألقى لهما وسادة قُبالَه فقال لهما: إنه مجلس شِرَة وفتنة فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلي، فإذا رأيتما مني شيئًا لا يوافق الحق فخوفاني وذكراني بالله عز وجل(٢).

فهذا مثل من تصميمه على الحكم بالحق، وهو لكونه يعرف ضعف بني آدم، وأن الإنسان يسير في هذه الحياة بين أعداء لدودين: نفسه الأمارة بالسوء التي تزين له اتباع الهوى، والشيطان الرجيم الذى يوسوس له ويخادعه ويقلل في عينه مسالك الانحراف، ويضخم في عينه مهابة الناس، وشياطين الإنس الذين ما يزالون يفتلونه في الذروة والغارب ليسقطوا على مواقع الضعف فيه فينفذوا منها إلى السيطرة عليه وتسخيره لباطلهم، فهو لكونه يعرف ذلك كله لم يعتمد على ما يرى من قوة إيمانه وعزمه الأكيد على تنفيذ الحق ودحر الباطل، بل جعل على نفسه رقباء من أهل التقوى بعيداً عن ساحة المعركة التي يخوضها هو ليدرك ما قد يفوته أو يغلب عليه من مناحي الانحراف عن الطريق المستقيم.

وفي تعبيره عن الطريقة التي أرشد إليها ذلك الأخ في الرواية الأولى في تنبيهه إلى الحق مثل من تواضعه الكبير، وتجرده من حظ النفس، واعتباره تنفيذ الحق أعلى من مراعاة الجاه والمنزلة الاجتماعية.

ما قام به من رد المظالم:

قال ابن عبد الحكم -في بيان ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة-: واحتجب عن الناس ثلاثًا لا يدخل عليه أحد، ووجوه بني مروان

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٤٦.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٤٦-١٤٧.

وبني أمية وأشـراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون ما يـخرج به عليهم منه، فجلس للـناس بعد ثلاث وحملهم عـلى شريعة من الحق فـعرفوهـا، فرد المظالم وأحيا الكتاب والسنة وسـار بالعدل، ورفض الدنيا وزهد فيها، وتجـرد لإحياء أمر الله عز وجل، فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل، فرحمه الله[1].

وهكذا رسم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سياسته التي سيسير عليها، حيث أحـصى المظالم فـردها إلى أصحـابهـا، وكان قـويًا في فـرض الحق، فلم يخش المعارضين مع كثرتهم وتحزبهم، ولم يـخش أحدًا من الظلمة، لأنه كان يخشى الله تعالى وحده، حيث أصبح قلبه مملوءًا بالإيمان بالله جل وعـلا وحبه وخشيته، ولم يكن لمراكز القـوى المحيطة به أي أثر في صده عن تنفـيذ الحق، لأن قلبه قـد تجرد للإيمان بالله تعـالى وحده فلم يـستطع الشـيطان أن يغـريه بالدنيا ولا أن يخـيفـه بأصحاب النفوذ ولا من وراءهم مِنْ طلاب الدنيا.

بدؤه بنفسه وأهل بيته:

ومن عدالته أنه بدأ بنفسه وأهل بيته، وفي ذلك يقول أبو بكر بن أبي سبرة: لما رد عمـر بن عبد العـزيز المظالم قال: إنه لينبغي أن لا أبدأ بـأول من نفسي، فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع فخرج منه، حتى نظر إلى فص خاتم فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب، فخرج منه[2].

ومن ذلك ما جاء في قول عبد المجيد بن سهيل: رأيت عمر بن عبد العزيز بدأ بأهل بيته فرد ما كان بأيديهم من المظالم ثم فعل بالناس بعد[3].

ولقد سـهل على الناس وصـول حقوقـهم إليهم، وفي ذلك يقـول أبو الزناد: وكان عمر يرد المظالم على أهلها بغير البـينة القاطعة، كان يكتفي بأيسر من ذلك، إذا عرف وجهًا من مظـلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البـينة لما كان يعرف من غشم الولاة[3].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤٠.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤١.
(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٤١.
(٤) المرجع السابق ٥/ ٣٤٢.

من كتاباته في رد المظالم:

ومن كتاباته إلى الولاة في رد المظالم ما رواه عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في رد المظالم إلى أهلها، فرددناها حتى أنفذنا ما في بيت مال العراق، وحتى حمل إلينا عمر المال من الشام[١].

وكذلك ما جاء في خبر أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: والى المدينة قال: كتب إلي عمر بن عبد العزيز: أن استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فرده عليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم.

وجاء في هذا الكتاب -كما ذكر موسى بن عبيدة- وإياك والجلوس في بيتك، اخرج للناس فآس بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم، وإذا أشكل عليك شيء فاكتب إلي فيه[٢].

وهذا من كمال عدله ومساواته بين المسلمين، وذلك يدل على قوة إيمانه ورجاحة عقله.

ولقد كان رد المظالم عملا كبيراً استغرق خلافة عمر بن عبد العزيز كلها كما جاء في خبر سليمان بن موسى قال: ما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[٣].

حرصه على الإسراع في رد المظالم:

ولقد كان حريصًا على الإسراع برد المظالم إبراءً للذمة وخوفًا من حلول الأجل قبل إكمال ذلك، ومن أخباره في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب ابن موسى قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة عامله على اليمن: أما بعد فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولا تعرف بُعْدَ

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٤١.

مسلفة ما بيني وبينك، ولا تعرفه أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت: أردها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني[1].

وهكذا يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لواليه على اليمن عروة بن محمد ابن عطية السعدي أهمية الإسراع في رد المظالم وأن لا يضيع الوقت بالكتابات الاستفسارية عن أمور واضحة، وفي هذا لفت نظر إلى أن من أسباب نجاح الوالي أن يتصرف باجتهاده في الأمور التي لا غموض فيها ولا لبس، من باب كسب الوقت والسرعة في الإصلاح.

مثل من صرامته وما لقي من عشيرته:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن أبي حكيم قال: أتى عمر بن عبد العزيز كتاب من بعض بني مروان فأغضبه ثم قال: إن لله في بني مروان ذبحًا، وايم الله لئن كان الذبح على يدي.. فلما بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته وأنه إن وقع في أمر مضى فيه[2].

وقوله «إن لله في بني مروان ذبحًا» لعله أخذه من سنة الله تعالى الجارية في الانتقام من الظالمين، وأن الله سبحانه يمهلهم بعض الوقت ولا يهملهم، فإذا أراد الانتقام منهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

مساواته بين عشيرته وسائر المسلمين:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال: لما قطع عمر بن عبد العزيز على أهل بيته ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم تكلم في ذلك عنبسة بن سعيد فقال: يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة، قال: لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد، فلا يمنعه من أخذه حقه إلا بُعْد مكانه، والله إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله[3].

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨١. (٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٩٥.

وهذا مثل من كمال عدله حيث تنزه عن محاباة عشيرته، وفي إخباره عن نزوله عذاب الله تعالى تصوير لسنة من سنن الله جل وعلا، وذلك أنه كلما تمحضت الأرض للشر كانت مهددة بنزول عذاب من عند الله تعالى، ولكنه سبحانه يدرأ عنها العذاب استجابة لدعاء الصالحين، ولذلك فإن المؤمن الحق يستأنس بكثرة الصالحين، ويستوحش من كثرة الفاسقين والمفسدين في الأرض.

وذكر الحافظ أبو نعيم من خبر عمر بن مقدم قال: قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم: إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر، قال فاستأذنت له فقال: أدخله، فأدخلته على عمر فقال ابن سليمان: يا أمير المؤمنين علام ترد قطيعتي؟ قال: معاذ الله أن أرد قطيعة صحت في الإسلام. قال فهذا كتابي وأخرج كتابًا من كمه، فقرأه عمر فقال: لمن كانت هذه الأرض؟ قال للفاسق ابن الحجاج. قال عمر: فهو أولى بماله، قال: فإنها من بيت مال المسلمين، قال فالمسلمون أولى بها قال: يا أمير المؤمنين رد علي كتابي، قال: لو لم تأتني به لم أسألكه، فأما إذ جئتني به فلا ندعك تطلب بباطل، قال فبكى ابن سليمان، قال مزاحم: فقلت: يا أمر المؤمنين ابن سليمان اللائط الحب[1] اللازق بالقلب تصنع به هذا؟ قال: ويحك يا مزاحم إنها نفسي أحاول عنها، وإني لأجد له من اللوط ما أجد لولدي[2].

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تجاذب نفسي بين مقام العدل بعدم تخصيص أفراد عشيرته بشيء دون أفراد الأمة وبين مقام الرحمة بمن يحبهم من أفراد عشيرته ممن يشعرون بأنهم قد تضرروا بحكمه، ولكن ليس هناك مجال للموازنة بين الأمرين لوضوح وجوب العدل وعدم الالتفات إلى عاطفة النفس لأن عاقبة ترك الواجب خضوعًا للعاطفة هي الهلاك في الآخرة، ولا يمكن عقد مقارنة بين الدنيا والآخرة.

إنصافه الرجل الحمصي من العباس بن الوليد:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: لما دفن عمر سليمان صعد إلى المنبر فقال «إني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي

(١) أي الشديد الحب من لاط يلوط لوطا.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١-٢٨٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩٨.

فاختـاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيـحة واحدة: قد اخترناك» فنزل فـدخل فأمر بالستور فهتكت، والثياب التي كانت تبسط للخلفـاء فحملت وأمر ببيعها وإدخالها -أو قال إدخال ثمنها- بيت المال، ثم ذهب يتبوأ مقـيلا، فقال ابنه عبد الملك تقيل ولا ترد المظالم؟ قـال أي بني قد سهـرت البارحـة في أمر عـمك سليمـان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم، قال من لك أن تعـيش إلى الظهر؟ فخرج ولم يَقِلْ، فأمر مناديه أن ينادي: ألا من كـانت له مظلمة فليرفعها، فـقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحيـة، فقال يا أمير المؤمنين أسألـك كتاب الله، قال وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي -والعباس جالس- فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال أقطعنيـها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وكتب لي بها سجـلا، فقال ما تقول يا ذمي؟ قـال يا أمير المؤمنين أسألك كـتاب الله عز وجل، فقال عمـر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليـد بن عبد الملك، اردد عليه يا عباس ضيعته، فـرد عليه، فجعل لا يدع شيئًا مما كان في يده وفي يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة(١).

فهذان مثلان من صرامة عمر بن عبد العزيز وحزمه في تطبيق الأحكام الشرعية، فهو لين رحيم فيما يتعلق بنفسه ولكنه قوي شديد فيما يتعلق بأحكام الله تعالى.

وفي هذين الخبرين مثل من انقـلاب المفاهيم عند أهل الدنيا، فالحق عند هذين الرجلين المعتديين هو ما قرره أبوهما الوليد وإن كان ظالمًا مـعتديًا من غير نظر فيما ينجيهمـا من المسئولية أمام الله تعالى يوم القيامـة، وما أعظم خسارة هؤلاء الذين يعـتدون على أمـوال الناس ولا يردعـهم من ذلك إلا قوة الـسلطان!! فإنهم قـد خسـروا دنياهم لانتـزاعها منـهم بالقوة وخسـروا آخرتهم لأنهم ليس لهـم نية في إنصاف المظلومين ورد حقوقهم إليهم.

نزعه إقطاع أحد الرجال:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني: حدثني أبي عن جدي قال: كنت عند هشام بن عبد الملك جالسًا، فأتاه رجل فقال

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٨٦.

يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها، فقال له هشام أعد مقالتك فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان، حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها، فقال والله إن فيك لعجبا، إنك تذكر من أقطع جدك قطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليهم وتذكر من نزعها فتترحم عليه، وإنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله[1].

في هذا الخبر موقفان أحدهما لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حيث رد ذلك الإقطاع الذي أعطيه ذلك الرجل بغير حق إلى بيت مال المسلمين.

والثاني موقف لأمير المؤمنين هشام بن عبد الملك رحمه الله تعالى، حيث حكم بالحق ولم تأخذه العصبية لأبيه عبد الملك وأخويه الوليد وسليمان فأقر حكم عمر ابن عبد العزيز، وقد تعجَّب من ذلك الرجل المتظلم حيث ترحَّم على عمر بن عبد العزيز الذى نزع منه القطعة ولم يترحَّم على عبد الملك الذي أقطع جده تلك القطيعة ولا على الوليد وسليمان اللَّذَين أقراها، وهذا يعني أن هناك إحساسًا لدى أفراد الأمة بعدالة عمر بن عبد العزيز وصلاحه حتى بالنسبة لمن تضرروا منه في دنياهم.

مثل من حكمته وموقف لابنه عبد الملك:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبرِ جويرية بن أسماء. قال: قال عبد الملك بن عمر ابن عبد العزيز لأبيه عمر: ما يمنعك أن تنفذ لرأيك في هذا الأمر؟ فوالله ما كنت أبالي أن تغلي بي وبك القدور في إنفاذ هذا الأمر، فقال عمر: إني أروض الناس رياضة الصعب، فإن أبقاني الله مضيت لرأيي، وإن عجلت علي منية فقد علم الله نيتي، إني أخاف إن بادهت الناس بالتي تقول أن يلجئوني إلى السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف[2].

وأخرج الحافظ أبو نعيم من طريقين: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على عمر فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأخْلِني -وعنده مسلمة بن عبد

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٤٥.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١.

الملك- فقال له عمر: أسِرٌ دون عمك؟ فقال نعم، فقام مسلمة وخرج، وجلس بين يديه فقال له: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال رأيت بدعة فلم تمتها، أو سنة لم تحيها؟ فقال: له يا بني أشيء حملتكه الرعية إلي، أم رأي رأيته من قبل نفسك؟ قال: لا والله ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، وعرفت أنك مسئول فما أنت قائل؟ فقال له أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيراً، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أوما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين[1].

وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز حكيمًا يوازن بين المصالح والمفاسد، فلا يتجه إلى تغيير منكر يترتب عليه منكر أكبر منه، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، فبقاء الناس على ما هم فيه من بعض الظلم أولى من سفك دماء المسلمين إذا كان رد المظالم بسرعة سيترتب عليه ذلك، ولكن الحكمة تقتضي التمهل في ذلك وسياسة الناس بالتدرج حتى ترجع الحقوق إلى أصحابها ويرتدع الظالمون دون حدوث فتنة دموية.

ولقد كان ابنه عبد الملك شديد التحمس لرد المظالم دفعة واحدة فهو شاب قوي الإيمان، لكنه لم يكن في مستوى أبيه من الحكمة والفقه في تطبيق الأحكام الشرعية.

حواره مع هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بشر بن عبد الله بن عمر عن بعض آل عمر أن هشام بن عبد الملك قال لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن في أنفسهم ما أكلمك به، إنهم يتولون استأنف العمل

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨١-٢٨٣.

برأيك فيما تحت يديك، وخلٍّ بين من سبقك وبين ما ولوا ممن كانوا يلون أمره بما عليهم ولهم فقال له عمر: أرأيت لو أُتيتُ بسجلَّين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك بأمر واحد فبأي السجلين كنت آخذ؟ قال بالأقدم ولا أعدل به شيئًا، قال عمر: فإني وجدت كتاب الله الأقدم فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي في مالي وفيما سبقني.

فقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان: يا أمير المؤمنين امض لرأيك فيما وليت بالحق والعدل، وخل عمن سبقك وعما ولي خيره وشره، فإنك مكتف بذلك. فقال له عمر: أنشدك الله الذي إليه تعود أرأيت لو أن رجلا هلك وترك بنين صغاراً وكباراً فعز الأكابر الأصاغر بقوتهم فأكلوا أموالهم، فأدرك الأصاغر فجاءوك بهم وبما صنعوا في أموالهم ما كنت صانعًا؟ قال: كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها. قال: فإني قد وجدت كثيراً ممن قبلي من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم. وعزهم بها أتباعهم. فلما وليت أتوني بذلك، فلم يسعني الرد على الضعيف من القوي، وعلى المستضعف من الشريف. فقال: وفقك الله يا أمير المؤمنين(١).

فهذان جوابان جليلان من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز استطاع بهما أن يسكت هشام بن عبد الملك وسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان اللذين حاوراه فيما قام به من رد المظالم، فقد سكت هشام ووافق سعيد بن خالد ودعا لعمر بن عبد العزيز، وهذا دليل على أن أولئك القوم الذين ورثوا الظلم يدركون أن ما تقدم به الولاة السابقون كان ظلمًا، ويريدون من عمر بن عبد العزيز أن يترك الناس على مظالمهم فإنه ليس مسئولاً عن ظلم من سبقه وأن يهتم فقط بتنزيه نفسه عن مباشرة الظلم، ولكنه أفهمهم بأنه لو أقر ظلم من سبقوه يكون شريكًا لهم في ظلمهم.

خطبته أمام الغرباء:

من مواقفه في العدل قوله في خطبة خاطب بها الغرباء فقال: يا أيها الناس الحقوا ببلادكم فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم، وإني قد استعملت عليكم

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨٢.

رجالا لا أقول هم خياركم، ولكنهم خير ممن هم شر منهم، ألا فمن ظلمه إمامه مظلمة فلا إذن له عليّ، ومن لا فلا أرينّه، ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال، فإن ضننت به عنكم إني إذًا لضنين، والله لولا أن أُنعِش سُنَّة أو أسِيرَ بحقّ ما أحببت أن أعيش فيكم فواقًا[1].

وقول عمر بن عبد العزيز للغرباء: «فإني أنساكم عندي وأذكركم ببلادكم» دليل على ضبطه لأمور رعيته، وذلك بتولية الولاة الأكفاء الذين يتفقدون أحوال الرعية ويرفعون حوائجهم لأمير المؤمنين مع متابعته لهم.

وقد بقي الغرباء في عاصمة الدولة ظنًا منهم أنّ الولاة سينسونهم كما نسيهم الولاة السابقون، وقد بين لهم عمر أنه لم يأل جهدًا في اختيار الولاة الأكفاء الذين على يدهم يتم صلاح الرعية.

ثم ذكر أن بابه مفتوح لسماع شكوى المظلومين الذين لم يستطع الولاة أن يرفعوا عنهم الظلم، أو وقع الظلم عليهم من الولاة أنفسهم.

أما من ليس له مظلمة وليس لديه مشورة أو إصلاح يهمّ الأمة فليس من المصلحة أن يتردد على المسئول، لأن في ذلك إضاعة وقت عليه وعلى المسئول، وذلك يترتب عليه إضاعة مصلحة المسلمين العامة، إضافة إلى أن المسلم مسئول عن كل دقيقة تمر عليه بغير فائدة، ... ذلك مراجعة المراجعين في قضايا يعلمون سلفًا أنهم لن يحصلوا فيها على شيء فإن ذلك لا فائدة فيه بل فيه ضرر إضاعة الوقت عليهم وعلى المسئولين.

ثم يتحدث عن المال الذي هو عصب الحياة، والذي من أجله يقتتل المتنافسون على الدنيا، فيُطَمئن الرعية إلى أنه ليس من المعقول أن يحرم منه نفسه وعشيرته ثم يحبسه عن الأمة.

إن الذي كان يحرم بعض الأمة من مال الدولة قبل عهد عمر كون المسئولين على مختلف مستوياتهم ومن حولهم من المستفيدين منهم قد تمتعوا بنصيب كبير

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤٢، والفواق قدر حلب الناقة، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٤٤، ٥٨، وتاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٠.

من ذلك المال إلى حد الإسراف والتبذير، فحينما جعل أمير المؤمنين عمر نفسه وعشيرته كأي فرد من أفراد الرعية فإن بقية المسئولين سيسيرون على سنته، وبالتالي سيتوفر مال كثير يعود على المحتاجين من الأمة، وقد حصل ذلك فعلا حيث كان الأغنياء يدورون بصدقاتهم في عهد عمر يبحثون عن الفقراء فلا يجدونهم، قد أغنى عمر الناس، كما جاءت الرواية بذلك.

ثم بين أنه ليس حريصًا على البقاء في الحكم إلا لهدفين: إحياء السُّنن بعدما أميتت، والحكم بالحق بعدما عم الباطل كثيرًا من أرجاء الأرض، وهكذا يفهم عمر الولاية على أنها عمل صالح يتقرب به إلى الله عز وجل، ومَنْ فهم هذا الفهم فإنه بعيد منه أن يظلم أو أن ينحرف عن طريق الحق، لأنه لو فعل ذلك لحصل له نقيض قصده، حيث سيكسب بالولاية أعمالاً سيئة، فيخسر في الوقت الذي يكون هدفه أن يربح ويفلح.

رده منحة عنبسة بن سعد:

من مواقفه الجريئة رحمه الله عدله في توزيع مال المسلمين ورفضه تخصيص أفراد عشيرته بشيء من ذلك، ومن أخبار ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم في أخباره عن شيوخه قال: ولما ولي عمر بن عبد العزيز رد المظالم والقطائع، وكان سليمان ابن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار فدارت في الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم فلم يبق إلا قبضها فتوفي سليمان قبل أن يقبضها وكان عنبسة صديقًا لعمر بن عبد العزيز، فغدا عنبسة يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان، فوجد بني أمية حضوراً بباب عمر يريدون الإذن عليه ليكلموه في أمورهم، فلما رأوا عنبسة قالوا: ننظر ما يصنع به قبل أن نكلمه. فقالوا له: أعلمْ أمير المؤمنين مكاننا، وأعلمنا ما يصنع بك في أمورك، فدخل عنبسة على عمر فقال له: يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لي بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديون الختم، ولم يبق إلا قبضها، فتوفي على ذلك، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندي، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين أمير المؤمنين سليمان، قال له عمر: كم ذلك؟ قال: عشرون ألف دينار، قال عمر: عشرون ألف دينار تُغني أربعة آلاف بيت من المسلمين، وأدفعها إلى رجل واحد!

والله مالي إلى ذلك من سبيل، قال: فرميت بالكتاب الذي فيه الصك، فقال لي عمر: لا عليك أن يكون معك فلعله أن يأتيك من هو أجرأ على هذا المال مني فيأمر لك بها.

قال: عنبسة: فأخذته تبركًا برأيه، وقلت له: يا أمير المؤمنين فما بال جبل الورس؟ وكان جبل الورس قطيعة لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر: ذكّرتني الطعن وكنت ناسيًا، يا غلام هلم ذلك القفص فأُتي بقفص من جريد فيه قطائع بني عبد العزيز فقال: يا غلام اقرأ علي، فكلما قرأ قطعة قال: شقّها، حتى لم يبق في القفص شيء إلا شقه، قال عنبسة: فخرجت إلى بني أمية وهم وقوف بالباب فأعلمتهم ما كان من ذلك فقالوا: ليس بعد هذا شيء، ارجع إليه فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان، فرجعت إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إن قومك بالباب يسألونك أن تجري عليهم ما كان من قبلك يُجرى عليهم، فقال عمر: والله ما هذا المال لي ومالي إلى ذلك من سبيل، قلت: يا أمير المؤمنين: فيسألونك أن تأذن لهم يضربون في البلدان، قال: ما شاؤوا ذلك لهم، وقد أذنت لهم، قال قلت: وأنا أيضًا، قال: وأنت أيضًا قد أذنت لك، ولكن أرى لك أن تقيم فإنك رجل كثير النقد وأنا أبيع تركة سليمان فلعلك أن تشتري منها ما يكون لك في ربحه عوض مما فاتك، قال: فأقمت تبركا برأيه فابتَعت من تركة سليمان بمائة ألف فخرجت بها إلى العراق فبعتها بمئتَيْ ألف، وحبست الصك، فلما توفي عمر وولي يزيد بن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان فأنفذ لي ما كان فيه[1].

في هذا الخبر بيان جرأة الولاة قبل عمر بن عبد العزيز وبعده على أموال المسلمين، فكان الولاة يختصون عشائرهم وكبار أهل الدنيا الذين يخشون منهم بكثير من هذا المال، ومن ذلك ما أمر به سليمان لعنبسة بن سعيد، ولكن عمر رد تلك المنحة وبين أنها تكفي لأربعة آلاف بيت من المسلمين، فكيف يعطيها لرجل واحد؟

إن إعطاء القلة من ذوي النفوذ تلك العطايا الكبيرة على حساب بقاء أفراد الأمة في حاجة ومسغبة يعتبر ظلمًا وإجحافًا كبيرًا، وهذا هو أهم الأمور التي نذر عمر نفسه للقضاء عليها.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/٥٨.

لقد كان يدور في الأوساط السياسية آنذاك بأنه لا يصلح لسياسة الأمة إلا من كان نهابا وهابا، حيث يقوم بنهب أموال الأمة العامة ليستميل بها بعض الأكابر الذين يقومون بحماية الدولة وفرض سيطرتها، ولكن عمر بن عبد العزيز نجح في سياسته الإسلامية نجاحًا كبيرًا، وقد كان عفيفًا وهابا، كان عفيفًا عن أموال الأمة العامة، وهابا للمال للمحتاجين من الأمة ومن يقومون بأمرها بالقصد والاعتدال، ومع أنه قد منع الأقوياء وأصحاب النفوذ من الخصوصيات التي كانت تمنح لهم فإنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا ضد دولته مع حرصهم على ذلك، لأن دولته أصبحت محمية من جميع أفراد الأمة الذين رجعت لهم حقوقهم، وتحسنت أحوالهم المعيشية.

وحينما ذكَّره عنبسة بن سعيد بجبل الورس وهو أحد الإقطاعات التى آلت إليه من ولاة العهد السابق تمثل بالمثل المشهور: «ذكَّرتني الطعن وكنت ناسيا» فدعا من فوره بأوراق الإقطاعات التي تخص بني عبد العزيز بن مروان فشقها جميعها.

وهو بهذا يبين للمستفيدين من الوضع السابق أنه أول من يطبق السياسة الإسلامية على نفسه وأسرته.

ولهذا يئس بنو قومه من عودتهم إلى ما كانوا عليه من خصوصيات مالية، واستأذنوه في السفر ليعملوا في التجارة كما يعمل غيرهم من أبناء الأمة.

إنصافه أحد الرعية من عامله عروة:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: واستعمل عمر بن عبد العزيز عروة بن عياض بن عدي على مكة، فخرج عمر من مكة، وخرج معه من خرج يشيعه حتى نزل بمَرّ[1] ومعه عروة، فجاء رجل فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، ظُلمت ولا أستطيع أن أتكلم، فقال عمر: ويحه أُخذَتْ عليه يمين ثم قال: إن كنت صادقًا فتكلم فقال: أصلحك الله، هذا -وأشار إلى عروة- سامني بمال لي وأعطاني به ستة آلاف درهم، فأبيت أن أبيعه فاستعداه عليَّ غريم لي فحبسني فلم يخرجني

(١) يعني مرُّ الظهران وهو مكان قرب مكة.

حتى بعته مالي بثلاثة آلاف درهم، واستحلفني بالطلاق إن خاصمته أبدًا، فنظر عمر إلى عروة ثم نكت بالخيزران بين عينيه في سجدته وقال هذه غرتني منك ثم قال للرجل: اذهب فقد رددت عليك مالك ولا حنث عليك[1].

وهكذا ابتلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ببعض الولاة الذين انخدع بمظهرهم الديني، فكانت سرائرهم تختلف عن علانيتهم، فهذا الوالي الذي ولاه عمر على مكة كان يظن أنه من العابدين، ومن كانوا كذلك فلا يتوقع منهم أن يرتكبوا شيئًا من ظلم العباد، ولكنه وقع في الظلم المذكور فى الخبر وأحاط ظلمه بما يكفل له عدم وصول خبره إلى أمير المؤمنين، ولكن ذلك المظلوم وصل إليه وقدم له شكواه فأنصفه، ولم يكن أمير المؤمنين بحاجة إلى استفتاء العلماء في موضع الطلاق المذكور لأنه كان من أبرز علماء عصره، فلذلك أفتاه في الحال بعدم وقوع الطلاق عليه لأنه مكره، ولا يقع الطلاق مع الإكراه.

إنصافه أهل سمرقند:

أخرج الإمام ابن جرير الطبري من خبر طفيل بن مرداس قال: كتب عمر إلى سليمان بن أبي السَّري: أن اعمل خانات في بلادك فمن مر بك من المسلمين فاقْرُوهم يومًا وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فاقْرُوه يومين وليلتين، فإن كان منقطعًا به فقوُّوه بما يصل به إلى بلده.

فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمرقند لسليمان: إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأْذَن لنا فليَفِدْ منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا، فإن كان لنا حق أُعطيناه، فإنَّ بنا إلى ذلك حاجة، فَأذِن لهم، فوجهوا منهم قومًا فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السري: إن أهل سمرقند قد شكوا إليَّ ظلمًا أصابهم، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخْرِجْهم[2] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣٤.

(٢) يعني المسلمين الغزاة.

قال: فأجلس لهم سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي الناجي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحًا جديدًا أو ظفرًا عنوة، فقال أهل السُّغد[1]: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حربًا، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمِنونا وأمنّاهم، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا كنا اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا[2].

فهذا مثل من عدل عمر بن عبد العزيز واهتمامه بأمور الأمة، وإنا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور:

أولها: أن الناس يُقبلون على التظلُّم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجدّ وسيُنظر فيها بعدل، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

ثانيها: أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسئولين، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد، والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

ثالثها: أن أولئك القوم قد أسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم، وأن مصلحتهم في بقائهم على ما هم عليه، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي.

كتابه إلى عمر بن الوليد:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى: وقال سليمان بن داود الخولاني: إن عمر بن عبد العزيز كان يقول: يا ليتني قد عملت فيكم بكتاب الله،

(١) السغد قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر.

(٢) تاريخ الطبري ٦/٥٦٧-٥٦٨.

وعملتم به، فكلما عملت فيكم بسنةٍ وقع مني عضو، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي.

ولما أقبل عمر على ردِّ المظالم وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق أحراسهم، ورد ضياعهم إلى الخراج، وأبطل قطائعهم فأفقرهم ضجّوا من ذلك فاجتمعوا إليه فقالوا: إنك قد أخليت بيت مال المسلمين، وأفقرت بني أبيك فيما تردّ من هذه المظالم، وهذا أمرٌ قد وليه غيرك قبلك، فدعهم وما كان منهم، واشتغل أنت وشأنك واعمل بما رأيت. قال لهم: هذا رأيكم؟ قالوا: نعم. قال: ولكن لا أرى ذلك، والله لَوَدِدت أن لا تبقى في الأرض مَظْلَمة إلا رددتها، على أن لا أرد مظلمة إلا سقط لها عضوٌ من أعضائي أجد ألمه، ثم يعود كما كان حيًا، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سالت نفسي عندها. قال: فخرجوا من عنده فدخلوا على بعض ولد الوليد -وكان كبيرهم وشيخهم(١)- فسألوه أن يكتب إلى عمر يوبِّخه لعلَّه أن يردَّه عن مساءتهم فكتب إليه:

أما بعد فإنك أزريَت بمن كان قبلك من الخلفاء، وسرت بغير سيرتهم وسميتَها المظالم تنقصًا لهم، وعيبًا لأعمالهم، وشنآنًا لمن كان بعدهم من أولادهم. ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعملت بغير الحق في قرابتك، وعَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم، فأدخلتها بيت مالك ظلمًا وجورًا وعدوانًا فاتَّق الله يابن عبد العزيز وراقبه فإنك قد شططت، لم تطمئن على منبرك، حتى خصصت ذوي قرابتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذي خصَّ محمدًا ﷺ بما خصه به من الكرامة، لقد ازددت من الله بعدًا في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاءٌ عليك وهي كذلك. فاقتصد في بعض ميلك وتحاملك. اللهم فاسأل سليمان بن عبد الملك عما صنع بأمة محمد ﷺ حين استخلفك عليهم.

قال فكتب عمر بن عبد العزيز إليه: من عمر أمير المؤمنين إلى فلان بن الوليد. سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأما بعد فإن أول أمرك يا فلان أن أمك بنانة أمة السكوني كانت تدخل دور حمص وتطوف حوانيتها والله أعلم بها فاشتراها دينار بن دينار من فيء المسلمين فأهداها

(١) هو عمر بن الوليد بن عبد الملك كما جاء في رواية ابن الجوزي.

إلى أبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس الجنين ثم نشأت فكنت جبارًا شقيا كتبت إليّ تُظلّمني وزعمت أن حُرمتك وأهل بيتك في مال المسلمين الذي فيه حق القرابة والضعيف والمسكين وابن السبيل، وإنما أنت كأحد منهم لك مالهم وعليك ما عليهم، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله الذي استعملك صبيًا سفيهًا تحكم في دماء المسلمين وأموالهم برأيك لم تحضره نية، ولم يكن يحمله عليه إلا حب الولد ولم يكن ذلك له، ولا حق له فيه، فويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة! وكيف النجاة لمن كثر خصماؤه؟ وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لفلانة البربرية سهمًا في فيء المسلمين وصدقاتهم. أهاجرتْ ثكلتك أمك أم بايعتْ بيعة الرضوان فتستوجبَ سهام المقاتلين؟ وإنَّ أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرَّة بن شريك أعرابيًا جلفا جافيًا على مصر، وأذن له في المعازف والبرابط والخمر، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من ولَّى يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب يجبي المال الحرام ويسفك الدم الحرام. رويدك فإنه لو قد التقت علينا حَلْقَتا البطان، وطالت بي حياةٌ، وردَّ الله الحق إلى أهله تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمتكم على المحجة البيضاء فطال ما أخذتم بُنَيَّات الطريق، وتركتم الحق وراءكم، ومما وراءَ هذا ما أرجو أن يكون خير رأي أبُتُّه بيع رقبتك فإن لكل مسلم فيك سهمًا في كتاب الله، والسلام على من اتبع الهدى، ولا ينال سلام الله الظالمين(١).

في هذا الخبر مثل من قوة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في تنفيذ الحق، وأنه لا يخشى في الله لومة لائم.

وفيه مقارنة واضحة بين أعماله التي أنجزها في العدل وإنصاف عامة المسلمين من كبرائهم، وبين أعمال بعض من سبقه من الولاة في ظلم العامة ومداهنة الكبراء.

وفيه مثل من تدنِّي مستوى الفهم وعمى البصيرة عند من استمرأ الجبروت والطغيان، حيث قلَب ابن الوليد الحقائق، فجعل العدل ظلمًا واعتبر الظلم عدلا،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٤٧-١٥١، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩٣.

لأن العدل في نظره أن يأخذ هو وأمثاله حريتهم الكاملة في التصرف بأموال العامة، واعتبر تطبيق العدالة عليهم نوعًا من قطيعة الرحم، ولو أدرك وعقل لعرف أن أعظم صلة الرحم أن يمنع الإنسان أقاربه من المعاصي، وأن يدلهم على طاعة الله تعالى.

وهذا الخلط في المفاهيم والموازين ناتج من غلبة النظر إلى الدنيا على النظر إلى الآخرة، وحينما تكون الآخرة حاكمة على الدنيا يصفو الفكر ويستقيم السلوك.

ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز شديدًا في رده على هذا الرجل لأنه في نظر عمر قد بلغ من الجفاء والتجبر حدا لا يجدي معه خطاب العقل ونداء الحس الإيماني.

جوابه لعنبسة حينما سأله:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: قال عمر بن عبد العزيز لعنبسة بن سعيد -وسأله حاجة- يا عنبسة إن كان مالك الذي أصبح عندك حلالا فهو كافيك، وإن كان حرامًا فلا تزيدنًّ إليه حرامًا، ألا تخبرني أمحتاج أنت؟ قال: لا، قال: أفعليك دين؟ قال: لا، قال: أتأمرني أن أعْمِدَ إلى مال الله فأعطيكَهُ من غير حاجة بك إليه وأدعَ فقراء المسلمين؟ لو كنت غارمًا أديت غُرمك، أو محتاجًا أمرت لك بما يصلحك، فعليك بمالك الذي عندك فكُله واتَّق الله، وانظر أولاً من أين جمعته، وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من ليس لك عنده هَوادةٌ ولا مراجعة[1].

في هذا الحوار الذي جرى بين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعنبسة بن سعيد يتبين لنا دقة عمر في التحري في اكتساب المال، بحيث لا يكون من طريق حرام أو مشتبه فيه.

كما يظهر لنا مثل من عدالته في توزيع المال العام، حيث بين أن عنبسة ليس بأحق بهذا المال من فقراء المسلمين.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٥٤-١٥٥.

وهذا مثل من أمثلة كثيرة وضح فيها عمر حرمة مال المسلمين العام، وأن الأخذ منه بغير حق كالأخذ من أموال الناس الخاصة، وقد كان كثير من الناس يعتقدون بأن ولاة الأمر لهم حرية التصرف بأموال المسلمين كما يؤدي إليه نظرهم، وأن ذلك المال يصير حلالاً لمن أعطي له بمجرد صرفه من ولي الأمر، فبين لهم عمر بأقوال وأفعال كثيرة أن هذا المال لا يجوز صرفه إلا لمستحقيه، وأنه إذا صُرف في غير وجهه فإنه يجب على من صُرف له أن يرده لبيت مال المسلمين.

مثلان من حكمته وحزمه:

لما ولي الخلافة قال له ابنه عبد الملك: إني لأراك يا أبتاه قد أخرت أموراً كثيرة كنت أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها، ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور، قال له عمر: أي بني إنك على حُسْن قَسْم الله لك، وفيك بعض رأي أهل الحداثة، والله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئًا من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم، خوفًا أن ينخرق عليَّ منهم ما لا طاقة لي به[1].

وهكذا لم يأخذ عمر برأي ابنه عبد الملك الذي لا يزال حديث السن لا يقدِّر عواقب الأمور، بالرغم من كون رأيه حق، ولكن ليس كل حق ينفَّذ حال معرفة أنه حق من غير نظر في عواقب التغيير، فربما أدى ذلك في بعض الصور إلى منكر أكبر من المنكر الذي يروم إزالته المصلحون، ولكن يبقى في ذهن المصلح وفي عزمه إزالة جميع المنكرات، وإنما يسلك في سبيل ذلك طريق الحكمة، ولذلك كان عمر يستلين قلوب أهل الدنيا بشيء من المال ليتوصل بذلك إلى ما يريده من الإصلاح حتى لا ينخرق عليه من أمورهم ما لا يستطيع مقاومته إلا بالقوة، وهو لا يريد إراقة الدماء، لأن شأن الأموال أهون بكثير من شأن الدماء.

ولكن حينما يكون لابد من القوة فإن من الحزم استعمالها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم قال: وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له «رَوح» وكان نشأ في البادية فكأنه أعرابي، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٤٣، ٨٧.

يخاصمون روحًا في حوانيت بحمص وكانت لهم أقطعهُ إياها أبوه الوليد بن عبد الملك، فقال له عمر: اردد عليهم حوانيتهم، قال له روح: هذا معي بسجل الوليد، قال: وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها؟ خَلِّ لهم حوانيتهم، فقام روح والحمصي منصرفين، فتوعد روح الحمصي، فرجع الحمصي إلى عمر فقال: هو والله متوعدني يا أمير المؤمنين، فقال عمر لكعب بن حامد -وهو على حرسه-: أخرج إلى روح يا كعب فإن سلَّم إليه حوانيته فذلك، وإن لم يفعل فأت برأسه، فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح بن الوليد فذكر له الذي أمر عمر فخلع فؤاده، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبرًا فقال له: قم فخلِّ له حوانيته، قال نعم نعم، فخلَّى له حوانيته[1].

وهكذا ظهر حزم عمر حينما استهان روح بن الوليد بحكم الشرع وأمر السلطان، فكان لابد من تهديده بالقوة ليذعن لحكم الحق، وهذا المثل يدلنا على أن استسلام الجبابرة لأوامره وسكوتهم على سياسته لم يكن عن قناعة، وإنما كان خوفًا من سلطانه.

إنصافه رجلاً من عدي بن أرطأة:

رُوي عن ابن عياش قال: خرج عمر ذات يوم من منزله على بغلة له شهباء، وعليه قميص له وملاءة ممشَّقه، إذ جاء رجل على راحلة له فأناخها، فسأل عن عمر، فقيل له: خرج علينا وهو راجع الآن، قال: فأقبل عمر ومعه رجل يسايره، فقيل للرجل: هذا عمر أمير المؤمنين، فقام إليه فشكى إليه عديَّ بن أرطأةَ في أرض له[2]، فقال عمر: أما والله ما غرَّنا منه إلا بعمامته السوداء، أما إني قد كتبت إليه -فضلٌ عن وصيتي-: إنه من أتاك ببينة على حق هو له فسلِّمه إليه، ثم قد عنَّاك إلي، فأمر عمر بردِّ أرضه إليه، ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي؟ فقال: يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت عليَّ أرضي وهي خير من مائة ألف! قال عمر: إنما رددت عليك حقك، فأخبرني كم أنفقت؟ قال: ما

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٠.

(١) وكان عاملا لعمر على الكوفة.

أدري، قال: احزره، قال ستين درهمًا، فأمر له بها من بيت المال، فلما ولّى صاح به عمر، فرجع فقال له: خذ هذه خمسة دراهم من مالي فكل بها لحمًا حتى ترجع إلى أهلك إن شاء الله(١).

فهذا مثل على اهتمام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز برد الحقوق إلى أهلها، وهو من أمثلة كثيرة، مر علينا بعضها، ولكن الذي يلفت النظر في هذا الخبر هو ما قام به عمر من تعويض ذلك الرجل عما أنفقه في سفره، حيث إنه كان من حقه أن يُقْضَى له في بلده من غير سفر.

وفي هذا لفت نظر إلى أمر مهم وهو أن من حق كل إنسان أن يأخذ حقه دون أن يكلَّف بالإنفاق من ماله في سبيل ذلك.

وهذا التعويض من فقه عمر حيث رأى أن إلجَاءَ ذلك الرجل إلى السفر من أجل رفع قضيته يعتبر من تقصير المسئول في بلده، وليس من تقصير ذلك الرجل، ولذلك فإنه ليس من العدل أن يُحمَّل تلك التكاليف.

خبره مع فرتونة مولاة ذي أصبح:

ومن الأمثلة الجيدة على شعور أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بالمسئولية واهتمامه بأمور الأمة دقيقها وجليلها ما جاء في سياق الروايات التي رواها ابن عبد الحكم عن شيوخه قال: وكان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابا إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدَفَعَتْ إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابًا تذكر فيه أن لها حائطًا قصيرًا، وأنه يُقتحم عليها فيُسرقُ دجاجها فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك فيه فيُسرق دجاجك، فقد كتبت كتابًا إلى أيوب بن شرحبيل -وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها- آمره أن يبني لك ذلك حتى يحصنّه لك مما تخافين إن شاء الله، والسلام.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٤٦.

وكـتـب إلى أيوب بن شـرحـبـيل: «من عـبـد الله عـمـر أمـيـر المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعـد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قـصر حائطها، وأنه يُسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصِّنه لها.

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حـتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصَّنه لها[1].

فهـذا الكتاب الذي رُفع مـن تلك المرأة المسكينة المغمـورة، إنما هو أثر من آثار العدل الذى شمل البلاد الإسـلامية في عهد عمر بن عبد العـزيز، فما كانت هذه المرأة المسكينة لترفع حاجتها إلى أمير المؤمنين لو كانت تتوقع أن كتابها سيكون طي الإهمال والنسيان، ولكن لما استقر في ضـميرها أن أمير المؤمنين يهتم بكل أمر من أمور الرعية كبـيرها وصغيرها، وأن كبار الأمور لاتشـغله عن صغارها وجدت من نفسهـا نشاطًا وهمة في الكتـابة إليه بأمرها وما أن وصل كـتابها حتى كـتب أمير المؤمنين فى جواب ذلك كـتابًا إليهـا يخبرها بما أمـر به الوالي في مصر من قـضاء حاجتها، وكتابًا إلى ذلك الوالي ليذهب بنفسه لقضاء حاجتها.

إنه لم يكتف بكتابه للوالي لخوفه من أن يتأخـر في ذلك أو يعتريه النسيان، بل كتب كـتابًا آخـر لصاحـبة الحاجـة لتراجع الوالي فـيمـا إذا لم يسارع إلى قـضاء حاجتها.

إن هذا الاهتمام من أمير المؤمنين يعتبر مثلاً عـاليًا في الشعور بالمسئولية، ويعتبر مصداقًا للرؤيا التي رآها فيه جده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من أنه يسـير بسيـرته، فإن من صـفات عـمر بن الخطاب أنه كـان في منتهـى العدل والشعور بالمسئولية، وأنه لم تكن كبار الأمور تشغله عن صغارها.

إنصافه رجلا اشتكى من أحد أقاربه:

قال ابن عبد الحكم رحمه الله تعـالى: وأتاه رجل فقال: يا أمير المؤمنين مَظْلمةٌ دخلتْ عليّ، قال عـمر: ومن يك؟ قال: فـلا والله ما استطاع أن يقـول: فلان،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/٦٦.

لبعض أهله، مـرتين أو ثلاثا، فقال: فـلان بن فلان عمد إلى مـال لي بكذا وكذا فأخذه فقال: يا غلام ائتني بدواة وقرطاس فكتب إلى عامله: إن فلانا ذكر لي كذا وكذا فإن كان الذى ذكر لي على ما ذكر فـلا تراجعني فيه واردده عليه، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: إن هذا لهو البلاء المبين(١).

فهذا مثل من حزمه رحمه الله في تطبيق العدالة حتى مع أقاربه حيث أمر عامله بأن يرد الحق على صاحبه وإن كان المدَّعَى عليه من أقاربه.

وفي هذا الخبر مثل من الذل الذي تتربَّى عليـه النفوس في حال تسلُّط الجبروت والطغيـان، حيث تلعثم صـاحب الحق في رفع قضيـته مع أنه أمام حـاكم عادل، ولكن الخلفيات السـابقة لحكم الظلم والتسلط جعلته يتردد ويتـتعتع، ولو لم يكن على رأس الحكم حاكم عـادل لما فكر أساسًا في رفع قـضيتـه لأنه -والحال هذه- يخشى أن يناله أذى فيما إذا رفع قضيته ضد أحد أقارب الحاكم.

تسويته بين الناس في مجلس الحكم:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خـبر الحكم بن عمر الرعيني قال: شـهدت مسلمة ابن عبد الملك يخاصم أهل ديـر إسحاق عند عمر بن عبد العـزيز بالناعورة، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي، ولكن وكل بخصومتك من شئت وإلا فـجاث القـوم بين يدي، فوكل مولى له بخـصومتـه فقـضى عليه بالناعورة(٢).

فهذا مـوقف جليل من أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز رحـمه الله تعالى في إقرار قـواعد العدل في مجـالس الحكم، وقد كان أحـد الخصمين ابن عمـه القائد الكبير مـسلمة بن عبد الملـك، ومع رفعة منزلته وكـونه ممن يحبهم عمـر بن عبد العزيز ويـقدرهم كثيرًا فـإنه لم يحابه في الحكم، بل ألزمـه بأن يسوي نفـسه مع خصومه ثم حكم عليه لصالح خصومه.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٣.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٥٩، والناعـورة موضع بين حلب وبالس فيه قصر لمسلمة بن عبد الملك، بينه وبين حلب ثمانية أميال.

أمره بوضع الضرائب:

ومن أمثلة عدله ما جاء في كتابه الذي بعثه إلى عروة بن محمد عامله على اليمن وجاء فيه: أما بعد فقد جاء كتابك تذكر أن من كان قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف، إن افتقروا لم يُنقصوا، وإن استغنوا زِيدَ عليهم، وتُؤامِرني في ذلك، ولعمري إن هذا لَلْجور حقٌّ الجور، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق، ثم اقسم ذلك على فقرائهم، وأقْعِد على طريق الحاج قومًا ترضاهم، وترضى دينهم وأماناتهم يقوُّونَ الضعيف، ويغنون الفقير، فوالله لو لم يأتني من قِبَلكَ إلا كفٌّ لرأيته من الله قسما عظيمًا والسلام[1].

ففي هذا الكتاب دلالة على أن بعض الولاة السابقين قد حولوا الزكاة إلى ضريبة تؤخذ من المسلمين بقدر محدد، يثبت على حاله عند فقرهم، ويزيد عند غناهم، وفي هذا مخالفة واضحة لشريعة الإسلام، حيث إن الزكاة لها مقادير وأحكام حُدِّدت في الشريعة، ورُوعي فيها حال دافعها من الفقر والغنى، كما روعي فيها أنها ليست ضريبة تُجبَى لتدخل في مال المسلمين العام، وإنما تؤخذ من أغنياء كل بلد لتُدفع إلى فقرائهم، كما جاء في حديث معاذ لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، وفيه **«فأعلمْهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردُ على فقرائهم»**[2].

ولهذه المخالفات التي ذكرها والي اليمن نجد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله يغضب من ذلك الوضع، ويصفه بأنه الجور حق الجور، ثم يوجه ذلك العامل إلى أن يأخذ من الناس الحق الشرعي في زكاة أموالهم، وأن يردها على فقرائهم.

كما يأمره فوق ذلك بأن يجعل على طريق الحجاج رجالاً أمناء يقومون بخدمة الحجاج، وتموينهم بما يكفي ضعفاءهم ومحتاجيهم.

وبهذا صار عطاء دولته لأمته أكثر من جبايته، فسعدت الأمة به، وزال الفقر عن فقرائها في مدة وجيزة، وفاض المال عند الولاة حتى أصبحوا يستشيرون أمير المؤمنين في صرف هذا المال الفائض.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٥.

(٢) صحيح البخاري، الزكاة، رقم ١٣٩٥ (٣/ ٢٦١).

ومن أمثلة ذلك ما كتب به عمر بن عبد العزيز إلى زيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب -وكان على الكوفة- يقول: كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد. والسلام.

ثم كتب إليه زيد: إنه قد بقي عندنا بعد ذلك، فكتب إليه عمر: أن قوِّ أهل الذمة، فإنا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين[1].

وفي هذا الخبر نظرة رحمة ومواساة لصنفين من الناس في غاية الحاجة والاضطرار، وهما المَدِينون، فما أشد احتياجهم، وما أبلغ همهم! والذين عزموا على الزواج وليس لديهم ما يكفي لتكاليفه، فما أعظم فرحتهم، وما أبلغ سعادتهم حينما يُقَدَّم لهم ما يسد حاجتهم!

وأخيرًا لفتة مهمة من أمير المؤمنين عمر حينما أوصى عامله بالاهتمام بتقوية أهل الذمة وإصلاح بلادهم، فإنهم يعتبرون مصدرًا مهما من مصادر بيت مال المسلمين، فوصيته هذه نظرة مستقبلية جيدة لتقوية هذا المصدر.

فلله در أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ما أسمى تفكيره، وما أبعد نظره!!

اهتمامه بفداء الأسرى والقضاء عن الغارمين:

من ذلك أنه كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أما بعد: فإنكم تعدُّون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئًا بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وإني قد بعثت إليكم خمسة دنانير خمسة دنانير، ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادى صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حرَّكم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا. والسلام عليكم.

وكتب أيضًا إلى عماله: أن اقضوا عن الغارمين، فكُتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث في بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٨.

المسلمين من مسكن يأوي رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم فاقضوا عنه ما عليه من الدين[1].

ففي الكتاب الأول يواسي عمر بن عبد العزيز أسرى المسلمين لدى الروم، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين.

وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي أمدهم به، وبما أخبرهم به من كفالة أُسَرِهم في حال غيبتهم، كما أنه وعدهم جميعًا بمفاداتهم لفكِّ أسْرِهم.

وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره.

وفي الخبر الثاني يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة، والاهتمام بشئون الرعية.

وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة، حيث يُغنون به فقيرها، ويجبرون به كسيرها، ويفكُّون به أسيرها، ويقضون به عن معسرها، ويسدُّون به خلَّة معوزها.

خبره مع الأسير الأعمى:

ومن الأمثلة الرائعة لرحمة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما أخرجه ابن عبد الحكم قال: وأرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولا، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع فسمع فيه رجلا يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام -مرتين أو ثلاثا- ثم سلم عليه، وأنَّى بالسلام في هذا البلد! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم، فقال له: ما شأنك؟ فقال: إني أسرت من موضع كذا وكذا، فأُتي بي إلى صاحب الروم، فعرض عَليَّ النصرانية فأبيت،

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٣-١٦٤.

فقال لي إن لم تفعل سملْتُ عينيك، فاخترت ديني على بصري، فسَمَل عينيَّ وصيَّرني إلى هذا الموضع، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها.

فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل قال: فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلَّت ما بين يديه.

ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد فقد بلغني خبر فلان ابن فلان فوصف له صفته، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنودًا يكون أولها عندك وآخرها عندي.

فلما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به.

قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة، فقال: تدري لما فعلت هذا؟ فقلت: لا -وقد أنكرت ما رأيت- فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات، فلذلك فعلت ما فعلت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السُّوء لم يُتْركْ بينهم إلا قليلا حتى يخرج من بين أظهرهم.

فقلت له: أتأذن لي أن أنصرف -وأيست من بعثه الرجل معي- فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل(١).

وإن في هذا الخبر ثلاثة أمور مهمة:

أ- موقف هذا الرجل المسلم الذي فضَّل البقاء على دينه، وتحمَّل سمل عينيه بالحديد المحمي بالنار حتى فقد بصره، وهنا يقف المتأمل مندهشًا من هذا المشهد المثير، الذي يدل على قوة الإيمان بالإسلام والقناعة به، حيث فضل هذا الرجل دينه على صحته وحياته، لأنه يعتبر هذا الدين هو حياته الحقيقية، ويعتبر أن مفارقة الإسلام موت لا يدانيه موت.

ولا شك أنه كان لهذا الموقف العالي وأمثاله الأثر البالغ في الدعوة إلى الإسلام، لأن العقل السليم يدل على أن المبدأ الذي يفضله صاحبه على حياته لا يمكن أن

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٨.

يكون عاديًا كمبادئ البشر المعروفة، لأن المبادئ تُستخدم عادة لرفع قيمة الإنسان في هذه الحياة، فلا يمكن أن يضحّي الإنسان بحياته من أجلها، وهو إنما يستخدمها للحياة، فلابد أن المبدأ الذي يبذل صاحبه حياته من أجله وراءه دافع أقوى من مستقبل هذه الحياة، ولا يمكن أن يوجد ذلك إلا في الإسلام الذي كرم الله تعالى فيه الشهداء والذين أوذوا في سبيل هذا الدين، ورفعهم درجات عليا في الجنة.

هذا الرجل المسلم المغمور الذي لم يذكر اسمه مثَّل هذا الموقف الكبير! فكم في هذه الأمة الإسلامية من المغمورين الذين يزن إيمانهم الجبال الراسيات!

وإذا كان هذا في المغمورين فكيف الحال بالمشاهير الذين لمعت أسماؤهم في مجال التضحية والفداء؟!

ب- وفي هذا الخبر مثل من رحمة عمر بن عبد العزيز البالغة وإشفاقه على المسلمين حيث بكى ذلك البكاء الشديد من خبر ذلك الأسير.

ومثل من اهتمامه العظيم بأمور المسلمين حيث كتب إلى ملك الروم يهدده ذلك التهديد القوي إن لم يُفرِجْ عن ذلك الأسير.

جـ- كما أن في هذا الخبر بيانًا لأثر العدل في الحكم حتى على الأعداء المحاربين، فحينما جاء كتاب عمر الذي بلغ حدًا عاليًا في التهديد لملك الروم ما كان من هذا الملك إلا أن قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا.

وحينما بلغه موت عمر تأثر بذلك وظهرت الكآبة على وجهه، وذلك لأنه حتى الأعداء ينعمون بعدل الأمراء من أعدائهم، لأنهم يأمنون خيانتهم وظلمهم لهم ولأتباع دينهم الذين يعيشون في بلاد هؤلاء الأمراء.

وقد بلغ بملك الروم التأثر بعدل عمر إلى حد أنه وفى بما وعد به حتى بعد موته وقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ثم نرجع فيه بعد مماته.

اهتمامه بأمور الرعية:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: وخرج عمر بن عبد العزيز يومًا في ولايته الخلافة بالشام فركب هو ومزاحم -وكان كثيرًا ما يركب فيلقى الركبان

يتجسس الأخبار عن القرى -فلقيهما راكبٌ من أهل المدينة، وسألاه عن الناس وما وراءه وهو الأمر الذي خرجا من أجله. فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبري، وإن شئتما بعضته تبعيضًا. فقالا: بل اجمعه فقال: إني تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغني موفور، والعائل مجبور. فسُرَّ بذلك عمر وقال، والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس[1].

مثل من اختياره الولاة:

قال الإمام أبو جعفر الطبري: ثم إن عمر لما أراد استعمال عاملٍ على خراسان. قال فيما ذكر عليّ بن محمد بن خارجة بن مصعب الضبعيّ وعبد الله بن المبارك وغيرهما: ابغوني رجلا صدوقًا أسأله عن خُراسان، فقيل له: أبو مجْلز لاحق بن حميد. فكتب فيه، فقدم عليه- وكان رجلا لا تأخذه العين[2] فدخل أبو مجْلز على عمر في جفة الناس[3]، فلم يُثبته[4] عمرُ، وخرج مع الناس فسأل عنه فقيل: دخل مع الناس ثم خرج، فدعا به عمر فقال: يا أبا مجلز، لم أعرفك، قال: فهلا أنكرتني إذ لم تعرفني! قال: أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله، قال: يكافئ الأكفاء، ويعادي الأعداء، وهو أمير يفعل ما يشاء، ويُقدم إن وجد من يساعده. قال: عبد الرحمن بن نعيم، قال: ضعيف ليّن يحب العافية، وتأتي له، قال: الذي يحبّ العافية وتأتي له أحبّ إلي، فولاه الصّلاة والحرب، وولى عبد الرحمن القشيريّ، ثم أحد بني الأعور بن قشير الخراج، وكتب إلى أهل خراسان: إنى استعملتُ عبد الرحمن على حربكم وعبد الرحمن بن عبد الله على خراجكم عن غير معرفة مني بهما ولا اختيار، إلا ما أخبرتُ عنهما، فإن كانا على ما تحبون فاحمدوا الله، وإن كانا على غير ذلك فاستعينوا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال عليّ: وحدثنا أبو السريّ الأزديّ، عن إبراهيم الصائغ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣١.

(٢) يعني أن جسمه لا يلفت النظر.

(٣) جفة الناس: جماعتهم.

(٤) لم يثبته: لم يعرفه حق المعرفة.

أما بعدُ، فكن عبداً ناصحًا لله في عباده، ولا يأخذك في الله لومة لائم، فإنّ الله أوْلى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولّين شيئًا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استُرعيَ، وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق، فإن الله لا تَخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهبًا، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه[1].

مثل من احتياطه في اختيار الولاة:

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر الملاء: أن بلال بن أبي بردة دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه قميص قد شمّره فوق كعبيه وعليه عمامة له حزقانية قد سَدَلَها بين كتفيه وقد أثر السجود في وجهه. قال: فاستنطقه عمر فوجده رجلاً سديد العقل. فقال له: قم يا بلال ارجع إلى منزلك. ثم دعا عمر ابن عبد العزيز مزاحمًا فقال: يا مزاحم! اختبر لي هذا الرجل -يعني بلالاً- فليس لي غناء عنه إنِ كان له ورع. فلما خرج مزاحم أرسل إلى بلال فجاء فقال له مزاحم: يا بلال. قال: ما تشاء أصلحك الله. فقال مزاحم: أنا والله أحب الخير لنفسي فماذا لي إن رميت بك على أحد العراقين؟ فقال: إذا كان ذلك فلك علي ثلاثون ألفًا، والله أنقدك إياها الساعة، وأربعون ألفًا إذا قدمت البلد. ثم قال: الأمر أمرك لا يخالف ولا يعصى. فقال مزاحم: ارجع إلى منزلك. قال: وخرج مزاحم حتى دخل على أمير المؤمنين عمر وقال له: عدو الله لص. وأخبره الخبر. فقال عمر: والله إن كاد ليغرني بسجدته وعمامته. والله لا يمسين في عسكري. انخسوا به. ثم كتب: من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة، سلام عليك. أما بعد، فإياك وبلالاً بلال السوء، وعيينة بن أسماء، وحوشب بن يزيد، فإنهم من بقايا السوء فلا تستعيننً بهم على شيء من عملك والسلام عليك[2].

ففي هذا الخبر ظهر لنا تطبيق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لعلمه، حيث كان يعلم أن الشرطين الأساسيين للولاية هما اتصاف الوالي بالكفاءة والأمانة، وقد عرف اتصاف هذا الرجل بالكفاءة من منطقه ومجالسته إياه، ثم كلف مولاه

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٦١-٥٦٢.

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٤٦، وأخرجه ابن سعد مختصراً ٥/ ٣٩٥.

مزاحمًا باختباره لمعرفة أمانته، لكنه لم ينجح في الاختبار فكان ما كان من استبعاده والتحذير منه.

وهذا الاهتمام الشديد من عمر بن عبد العزيز يدل على حرصه الكبير في التحري في اختيار الولاة، لأن ذلك يضمن له بنسبة كبيرة أن تسير الأمور في البلاد الإسلامية على ما يريد من العدل والإصلاح.

حرصه على تولية الأكفاء:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال: أراد عمر بن عبد العزيز أن يستعمل رجلا على عمل فأبى، فقال له عمر: عزمت عليك لتفعلن، فقال الرجل وأنا أعزم على نفسي أن لا أفعل، فقال عمر أتعصيني؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. أفمعصية كان ذلك منهن؟ فأعفاه عمر[١].

مثل من نباهة عمر وفطنته:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: وولى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المُعَيْطي على جند قِنَّسرين -والفُراتُ بن مسلم على خراجها -فتباغيا، حتى بلغ الأمر بالوليد أن هيأ أربعة نفر من كهول قنسرين يشهدون على فرات أنه يدع الصلاة، ويُفطر شهر رمضان مقيمًا صحيحًا، ولا يغتسل من الجنابة، ويأتي أهله وهي طامث. فقدموا على عمر بن عبد العزيز فشهدوا بهذه الشهادة، وهم مختضبون بالحناء، فقال عمر هذا رمقتموه في صلاته فلم يُصَلِّها، إما تركها متعمدًا وإما ساهيًا، ورأيتموه يفطر في ظهر رمضان ولا ترون به سقمًا، ما علمكم أنه لا يغتسل من الجنابة وغشيانه أهله؟ والله ما هذا مما يشتم به ولا سيما فرات في مثل عفافه وأمانته، يا غلام انطلق بهؤلاء المشيخة السوء إلى صاحب الشُّرَط، فمُرْه فليضرب كل واحد منهم عشرين سوطًا على مَفرق رأسه، وليرفق في ضربه لمكان أسنانهم، وبحَسْبهم من الفضيحة ما هم صائرون إليه، إن لم يتغمد الله ما كان

---

(١) حلية الأولياء ٥/٣١٢.

منهم بعفوه، ثم استوثق منهم بالكفلاء حتى يكون فرات هو الآخذ بحقه منهم، أو العافي عنهم، والعفوُ أقرب للتقوى وأقرب إلى الله عز وجل. ثم أصلح بين الوليد وفرات.

قال: ولما قدم قابل، وقدم الوليد ومعه رؤوس أنباط قِنَّسرين كتب عمر بن عبد العزيز إلى الفرات أن أقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط، فقال لهم عمر: ماذا أعددتم لأميركم في نزله لمسيره إليَّ قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما علمتم به؟ قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد فقال: يا وليد إن رجلاً ملك قنَّسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه، حتى انتهى إليَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفِّر أحدًا ولا يروعه، لخليقٌ أن يكون متواضعًا عفيفًا، قال الوليد: أجل والله يا أمير المؤمنين إنه لعفيف وإني له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه. فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار، وردَّهما عمر على عملهما فكتب إليه الوليد -وكان مرائيًا- خديعة منه لعمر، وتزينًا بما هو ليس عليه: إني قدَّرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهمًا، ورزقي يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يَحطَّ فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزيَّن عندنا بما لا أظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحدًا على ظنٍّ لعزلته، ثم أمر بحطِّ رزقه إلى الذي سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده، إن الوليد بن هشام كتب إليَّ كتابًا أكثر ظني أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئًا على ظني ما عمل لي أبدًا، ولكني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك، فسألك أن تردَّ إليه رزقه، وذكر أني نقصته فلا يظفر منك بهذا أبدًا فإنما خادع به الله والله خادعه، فلما مات عمر، واستُخلف يزيد كتب إليه الوليد: إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يل له عملاً حتى هلك[1].

في هذا الخبر مثل من الحسد المذموم وما يترتب عليه من الكيد للزملاء في العمل، وهذا ينتج عادة من تضخم شرف الدنيا في النفس وتضاؤل شرف الآخرة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٥١-١٥٣.

فيها، فيعمل الحاسد على تـقويض مركز من ينافسونه على شرف الدنيا، ويرتكب من أجل ذلك موبقـات منها الكذب والتزوير، ولو أن هذا الحـاسد استعـمل عقله السليم فأعطى الدنيا حـجمها الملائم لها لَتـواضَع بدلاً من أن يتكبر، ولأراح عقله من التفكير الطويل في مـلاحقة شرف الدنيا والكيـد للمنافسين، ولَعَفَّ لسانه عن قول الكذب والزور، ولعاش قرير العين سعيد النفس بما قسم الله له من مال الدنيا وشرفهـا، ولَطلب بفكره وعمله شرف الآخـرة الذي لا يترتب عليه حسـد مذموم ولاكبر وبطر ولا إشغال للفكر بتدبير المكائد والمؤمرات.

ولما كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز خبيراً بأدواء النفوس وتجاوزاتها فإنه قد أدرك على الفور أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن مجيء أولئك الشيوخ وتصريحهم بما أدلوا به من قدح مـشين بأميرهم فـرات بن مسلم ما هو إلا حلقـة من حلقات مؤامرة مدبرة لإيغار صدره عليه وعزله عن منصـبه، فهداه الله تعالى إلى استعمال فكره السليم في نقض تلك الدعـاوى، ووضع أصحابهـا في قفص الاتهـام حتى تتـضح الرؤية ويتبين الحق، ولقـد كان واثقًـا من كذب تلك الـدعاوَى حيـث أمر بإجراء العقوبة على أصـحابها، ثم لم يكن بحاجةٍ إلى إكمال التحـقيق في القضية لأن الأمر من الوضوح بحيث حمل صاحب المؤامرة على الاعتراف بخطئه والحكم على نفسه بالظلم لزميله في العمل والثناء عليه بما يستحقه من صفات الكمال، ثم لما كان هذا الاعـتراف بالخطأ برزت أخـلاق عمر بن عـبد العزيز المتـمثلة بالعـفو والرحمة وتقدير المواقف الإيمانية.

وحينما طـلب منه الوليد بن هشام المعطي أن ينقص من راتبـه أدرك خداعه في اختلاف سريرته مع علانيته، حيث أظهر العفة والزهد ليصل إلى كسب الثقة وعلو المنزلة عند عمـر بن عبد العزيز الذي يعظمٍ هذا الاتجاه، ولـكن أمير المؤمنين أدرك ذلك فحقق له مطلبه، وفي الوقت نفسه فوّت عليه الفرصة في نيل مقاصده، ولقد كان أمـير المؤمنين عظيم الورع حـينما لم يحكـم عليه بمجرد ظنـه، وإنما قاده هذا الظن إلى عمل الاحتياطات اللازمة لتفادي ما قد يكون من ذلك الوالي من جنوح في المستقبل.

فما أعظم عمر بن عبد العزيز في فطنته وفراسته وحزمه!!

وما أعظمه في رحمته وعفوه وورعه!!

موقفه في رفع الظلم عن زيد بن حسن:

قال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: وكتب الوليد بن عبد الملك إلى زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، يسأله أن يبايع لعبد العزيز بن الوليد، ويخلع سليمان بن عبد الملك، ففَرَق زيدٌ من الوليد فأجابه، فلما استُخلف سليمان وجد كتاب زيد إلى الوليد بذلك فكتب إلى أبي بكر بن حزم -وهو أمير المدينة- ادع زيد بن حسن فأقرئه هذا الكتاب فإن عرفه فاكتب إلي بذلك، وإن نكل فقدِّمه فأظهر يمينه على منبر رسول الله ﷺ: ما كتب هذا الكتاب ولا أمر، فأرسل إليه أبو بكر بن حزم فأقرأه الكتاب، فقال: أنظرني ما بيني وبين العشاء أستخير الله. قال: فأرسل زيد بن حسن إلى القاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله يستشيرهما. قال: فأقاما معهما ربيعة فذكر لهما ذلك، وقال: إني لم أكن آمَنُ الوليد على دمي لو لم أجبه، فقد كتبت هذا الكتاب، أفترون أن أحلف؟ فقالوا: لا تحلف ولا تبارز الله عز وجل عند منبر رسول الله ﷺ، فإنا نرجو أن يُنجيك الله بالصدق، فأقرًّ بالكتاب ولم يحلف. فكتب بذلك أبو بكر بن حزم إلى سليمان، فكتب سليمان إلى أبي بكر أن يضربه مائة سوط، ويُدرعه عباءة، ويُمشيه حافيًا، فتشكى سليمان. فقال عمر بن عبد العزيز للرسول: لا تخرج حتى نكلم أمير المؤمنين فيما كتب إلى زيد بن حسن، لعلي أستطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. قال: فحبس الرسول والكتاب، ومرض سليمان فقال عمر: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، إلى أن رُمي في جنازة سليمان، وأفضى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فدعا بالكتاب فخرقه(١).

وهكذا نجى الله تعالى زيد بن حسن من بأس سليمان بن عبد الملك وبطشه بذلك السلوك الحكيم من عمر بن عبد العزيز، وإنه لعجيب من أولئك الأمراء أن يحرجوا كبراء الأمة وفضلاءها بإدخالهم في تجاوزاتهم السياسية وجعلهم معرضين لنقمة الحاكم الحالي إن لم يوافقوا على تحقيق مراده أو نقمة الحاكم القادم إن وافقوا على ذلك، فكان زيد بن حسن قد فضل درء الشر الحاضر على أمل أن لا يكون

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١١٩-١٢٠.

الشر المستقبل، ولكنه وقع وكاد أن يتعرض للتعذيب المذكور لولا أن أنقذه الله تعالى بما فعله عمر بن عبد العزيز.

شكوى عمته باسْم بني أمية:

أخرج محمد بن سعد من خبر عبيد الله بن محمد التيمي قال: سمعتُ أبي وغيره يحدث أن عمر بن عبد العزيز لما ولي منع قرابته ما كان يجري عليهم وأخذ منهم القطائع التي كانت في أيديهم. ، قال فشكوه إلى عمّته أم عمر، قال فدخلتْ عليه فقالت: إنّ قرابتك يشكونك ويزعمون ويذكرون أنك أخذت منهم خير غيرك، قال: ما منعتُهم حقّا أو شيئًا كان لهم ولا أخذت منهم حقًا أو شيئًا كان لهم. فقالت: إني رأيتُهم يتكلمون وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني اللهُ شرّه. قال فدعا بدينار وجَنْب ومجمرة فألقى ذلك الدينار في النار وجعل ينفخ على الدينار حتى إذا أحمر تناوله بشيء فألقاه على الجنب فنشّ وقتّر فقال: أيْ عمة أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا؟ قال فقامت فخرجت على قرابته فقالت: تزوجون إلى عمر فإذا نزعوا الشبه جزعتم، اصبروا له[1].

ففي هذا الخبر بيان زهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بهذه الحياة الدنيا وعدم مبالاته بما جري عليه فيها من مصائب، فإن الشيء الوحيد الذي يهتم له هو ما سيكون عليه مآله بعد الموت، فكل تهديد يوجه إليه في هذه الحياة الدنيا فإنه لا يثير خوفه ولا يحسب له حسابًا، وهذا فيه تيئيس لمن سيعملون ضده لأنه لا يجذبه طمع ولا يخيفه فزع، ومن أجل أن يكون تصور أهوال الآخرة أبلغ فإنه قام بتمثيل مصغر لعذاب النار أمام عمته لتتأثر بذلك الموقف ولتنقل الصورة إلى بني أمية لعلهم يتذكرون ويعتبرون.

تأديبه لمن سخَّر أهل الذمة:

أخرج محمد بن سعد من خبر سهل بن شعيب أن ربيعة الشعوذي حدثهم قال: ركبتُ البريد إلى عمر بن عبد العزيز فانقطع في بعض أرض الشام فركبت

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٣، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩٦.

السُّخْرة[1] حتى أتيته وهو بخناصرة فقال: ما فعل جناح المسلمين؟ قال قلت: وما جناح المسلمين يا أمير المؤمنين؟ قال البريد قال قلت: انقطع في أرض أو مكان كذا وكذا. قال: فعلى أيّ شيء أتيتنا؟ قال قلت: على السخرة تسخرتُ دوابّ النبط. قال: تسخّرون في سلطاني؟ قال فأمر بي فضربتُ أربعين سرطًا، رحمه الله[2].

فهذا من أبلغ أمثلة العدل، حيث يأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بضرب أحد عماله لكونه سخّر أهل الذمة لحمله على دوابهم، فهو يرى أن ذلك ظلم لهم، فما أسمى أحكام الإسلام التي يصل بها أهل الذمة من الكفار إلى حقوقهم الكاملة ويتمتعون بها بالعدل والأمن!! ولكن هذه الأحكام تحتاج إلى حكام عادلين لتتمثل في واقع الحياة فيشاهدها الناس أجمعون، ويكون لها الأثر الكبير في تعظيم الإسلام والانجذاب إليه.

مثل من بركة الحكم بالعدل:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثني أبي عن جدي. قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقًا ونقبًا، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد وأسأله: آخذ من الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس؟ فكتب إليّ أن آخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. قال يحيى: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقًا ونقبًا[3].

فهذا مثال على أن البركة والسعادة والأمن تتوفر في تطبيق شريعة الإسلام، فإن عصاة المسلمين وإن جرت منهم جنوحات إجرامية فإنهم مؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر، فإذا شعروا بأنهم يُحكَمون بالدين وأن الحاكم صادق ومخلص في تطبيق الإسلام فإنهم يرتدعون بأقل الروادع، ويصبح من يلومهم على إجرامهم يتكلم باسم الدين فيرعوي من في قلبه بقية من جذوة الإيمان ويقظة الضمير، ولا يصر

---

(١) يعني سخر من مر بهم من أهل الذمة ليحملوه على دوابهم.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٤.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٢٧١.

على الإجـرام إلا من قست قـلوبهم وغلظت طبـاعهم، وهؤلاء لا يرتدعـون إلا بتطبيق الحدود الشـرعية، ولكن عددهم في المجـتمع الإسلامي محدود، فـالقضاء على الجـرائم -والحال هذه- مـتيسـر للحـاكم العادل الـذي يطبق الحق على كل المسلمين، ومن هذا المنطلق نجح هذا الحاكم في إقرار الأمن والقضاء على الجرائم.

أما إذا كان الحاكم يأخذ الناس بالظن ولا يتقيد بأحكام الشريعة فإن من عندهم ميل للجـرائم يغالبون الحاكم بالتـحدي، ولا ينشط المتقـون للإنكار على المجرمين لأن القضية تكون بينهم وبين سلطان مـتجبر، فيكون موقف المتقين ضعـيفًا حينما يقاومون أصحاب الجرائم لأن موقفهم قد اقترن بموقف الحاكم المتسلط.

إنصافه الأعراب من بعض بني أمية:

أخرج عبد الله بن الإمام أحمد من خبر سليمان بن موسى أنه بلغه أن قومًا من الأعراب خاصـموا إلى عمر بن عـبد العزيز قومًا من بـني مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها، فأخذها الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر بن عبد العزيز: قال رسول الله ﷺ: «**البلاد بلاد الله والعباد عباد الله، من أحيى أرضًا ميتة فهي له**»، فردها على الأعراب[1].

فهذا مـثل من عدل أمير المؤمنين عمـر بن عبد العزيز رحمـه الله تعالى، حيث أنصف الأباعد عنه من المـقربين إليه، وفي الخـبر دلالة على أهميـة العلم الشرعي للحاكم وأثر ذلك في سلوك الطريق المستقيم والسلامة من الزلل.

وصيته عماله بالتقوى والعدل:

قال ابن عبد الحكم: وكتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العـمال[2]، أما بعـد: فإن هذا الأمـر الذي ولاني الله لو كنت إنما أصـبحت ورغبتي فـيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج أو اعتقـاد أموال لكنت قد بلغ الله بي من ذلك قبل مـا ولاني من أفضل ما بلغ بعباده، ولـكني أصبحت له

---

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل/ ٢٩٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٨٥.

(٢) في تاريخ الطبري أن هذا الخطاب موجه إلى يزيد بن المهلب.

خائفـا، أعلم أن فيه أمـرًا عظيمًا وحـسابًا شديدًا ومـسألة غليظة[١] عند مجاهدة الخصـوم بين يدى الله إلا ما عافى الله ورحم ودفع، وإني آمـرك فيمـا وليتك من عملـي وأفضيت إلـيك من أمري بتـقوى الله، وأداء الأمانـة واتباع ما أمـر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، وقلة الالتفات إلى شيء خالف ذلك، ليكون الذي آمرك به في سيرتك والنظر في نفسك وفي عمـلك وما تفضي به إلى ربك وما تعمل به فيما بينك وبين الرعية قِـبَلَك، وأنت تعلم علما يقينا أنه ليس نجاة ولا حرز إلا أن تنزل بذلك المنزل من طاعة الله، ودع أن ترصد شيئًا ليوم ترجوه أو تخافه سوى ما ترجوه غدًا من الله تـعالى وتخاف منه، فإنك قـد رأيت عبرًا في نفسك وعـبرًا ما مثلُها وعُظ مثلُنا، وكفى ومثلُها أصابك إلى حظك من الله، والسلام[٢].

فهذا الخطاب يبين عظمـة شعور أمير المؤمنين عـمر بن عبد العزيز بالمسئولية، حيث فـهم وبين أن الولاية مغرم لا مغنـم، فهي جدٌ وعمل وهمٌ مـتواصل، وإنما يدفع إلى فهم حقيقتها، والنجاة من مـزالقها شعور صاحبها بالوقوف بين يدي الله تعالى للحـساب، وأن يُعدَّ لكل قـضية جـوابًا، فإذا لم يستطع إعـداد الجواب في الدنيا فإنه أعـجز عنه في الآخرة، وإنما يكون إعداد الجـواب بتنقية السيـرة وتطهير السريرة، وبذل الجـهد في الإصلاح، فإن العـامل لا يُلام بعد بذل الجهـد على ما كان منه من تقصير أو خطإ لا يعلمه، أما إذا كان هدف العامل اكتساب مجد الدنيا ومتاعها وتجنب خـسارتها فإنه قد حكم على نفسه بالهلاك، وضيع باخـتياره سبيل النجاة، فلا يلومنَّ إلا نفسه المفرِّطة، ولا يَنْتَقِصَنَّ إلا فكره المنحرف.

ومن ذلك ما ذكره أبو مـحمد عبـد الله بن عبد الحكم رحمـه الله تعالى قال: وكتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عـمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمير الأجناد: أما بعد فإنه من بلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة وبلايا عظام، إن غابت عنه يومًا فهي حَـرِيَّة أن تحضره في اليوم الآخَر، وإنه ليس أحد بأشـغل عن نفسه ولا أكثـر تعرضًـا لزيغ من ولي السلطان، إلا مـا عافى الله ورحم، فـاتق الله ما استـطعت، واذكر منزلك الذي أنت به والذي حُـمِّلت، وقاتل هـواك كما تقـاتل

---

(١) في كتاب ابن عبد الحكم «الطيفة» وأثبت ما في تاريخ الطبري لأنه أنسب لسياق الكلام.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٩٢، تاريخ الطبري ٦/ ٥٦٦-٥٦٧.

عدوك، واصبر نفسك عما كرهت ابتغاء ما عند الله من حسن ثوابه الذي وَعد به المتقين فيما بعد الموت، والذي وعدكم على التقوى والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله، فإذا حضرك الخصم الجاهل الخَرِق ممن قدر الله أن يوليك أمره وأن تبتلى به فرأيت منه سوء رِعَة وسوء سيرة في الحق الذي عليه والحظ الذي له فسدِّده ما استطعت وبصِّره، وارفق به وعلِّمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنبًا استحق فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك عليه، ولكن عاقبهُ وأنت تتحرى الحق في قدر ذنبه بالغًا ما بلغ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جَلدةٍ واحدة تجلده إياها، وإن كان ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة في ذلك قتْلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن، ولا يسرعنّ بك إلى عقوبته حضور من يحضرُك، فإنه لعمري ربما عاقب الإمام لمحضر جلسائه، ولتأديب أهل بلده ولتغامزهم به، وما من إمام له جلساء إلاَّ سيكون ذلك فيهم وما من قوم يسمعون بقضاء إمام إلا سيختلفون فيه على أهوائهم، إلا من رحم الله، فإن من رحم الله لا يختلفون في قضاء، فإنه قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وإذا استجهلت فتثبت، وإذا نظر إليك من حولك ما أنت فاعل بسفيه من رعيَّتك إن سفه أو أخطأ خطيئة فاعمِد في ذلك للذي ترى أنه أبَرُّ وأتقى وخيرٌ لك غدًا فيما بعد الموت، ولا يطربك نظرهم إليك ولا حديثهم عنك فإنهم لا يبقى في أنفسهم حديثٌ أحبُّوه أو كرهوه إلاَّ قليلاً إلا أبْدَوهُ. فاغتنم كل يوم أخرجك الله فيه سالمًا، وكل ليلة مضت عليك وأنت فيها كذلك وأكثر من دعاء الله بالعافية لنفسك، ولمن ولاَّكَ الله أمره، فإن لك في صلاحهم ما ليس لأحد منهم وإن عليك في فساد الرجل الواحد فما فوق ذلك ما ليس على أحد منهم.

ولا تبتغ منهم جزاء خيرٍ أحسنته إليهم، ولا بتسديد سددتهم، ولا تطلب بعمل صالح عملته فيهم جزاءً ولا ثوابًا ولا مدحةً ولاحظوة، وليكن ذلك لمن لا يعطي الخير ولا يصرف السوء غيره، ثم تعاهد صاحب بابك وصاحب حرسك وعاملك المقيم عندك والذين تبعث، فلا يعملون في شيء مما تحت يدك بغشم ولا بظلم،

وأكثر المسألة عنهم، فمن كان منهم محسنًا نفعه ذلك، ومن كان مسيئًا استبدلت به من هو خير منه.

نسأل الله ربنا برحمته وقدرته على خلقه أن يغفر لنا ذنوبنا وأن ييسر لنا أمورنا، وأن يشرح لنا صدورنا بالبر والتقوى، والعمل فيما يحب ويرضى، وأن يعصمنا من المكاره كلها، وأن يجعلنا من الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادًا، ومن المتقين الذين لهم العاقبة، والسلام عليكم ورحمة الله(١).

ففي هذا الكتاب بيان خطورة الولاية وأنها مزلة قدم، ولا يسلم من زلاتها إلا من رحمه الله تعالى، فالولاية إما عمل صالح عظيم الدرجات لمن عف وعدل واستقام، وإما عمل سيئ يؤدي إلى الهلاك لمن رتع وجار وانحرف، ولولا أنها في بعض صورها عمل صالح لما أقدم عليها من يخشى الله ويتقيه.

وإذا تقلد الإنسان ولاية برز هوى نفسه الأمارة بالسوء لكثرة المغريات، فإذا لم يتصور الإنسان نفسه التي بين جنبيه عدواً له في بعض الأحيان فإنه سالك سبيل الهلاك، لأنه لن يعمل على كبح جماح النفس وتقويمها، وقد تكره النفس الاستقامة على منهج الإسلام الكامل، فلابد من إكراهها على سلوك هذا السبيل، وسيتحول الأمر بعد شيء من المعاناة -تقصر أو تطول- إلى منهل عذب وسبيل رحب، تهواه النفس المطمئنة وتنافس عليه.

والمسئول يبتلى بمعاملة الناس على مختلف أذواقهم ومشاربهم، وقد تتحول هذه المعاملة إلى معاناة ومكابدة، فلا يغتر المسئول بكونه أقدر على أفراد رعيته منهم عليه فيعاملهم بشيء من العنف والقسوة وإن ساءت معه أخلاقهم وغلظت معه طباعهم، بل عليه أن يبذل جهده في تعليم الجاهل الأدب وحسن المعاملة، فإن التعليم من الأعلى له دوره المؤثر، حيث إنه يملك هيبة المسئولية، فإذا تحول عما ينتظر منه عادة من محاولة فرض السيطرة إلى محاولة تعليم الناس وتهذيب أخلاقهم فإن النفوس تُكْبِر ذلك فيه وتقبل على توجيهه.

وإذا أخطأ أحد أفراد الرعية خطأ يستحق عليه العقوبة فمن واجب الوالي أن يتأنى في إجراء العقوبة، وأن لا يحكم عليه وهو غضبان، فإن مع الغضب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٨١-٨٣.

شيطـانًا، والقوة الغـضبيـة أميل إلى الجـور والعسف، ولذلك أمـر النبي ﷺ من غضب بالوضوء أو بالقعـود إن كان قائمًا ليزول غضبه قـبل أن يتصرف، وليندحر شيطانه.

وإن من فضـائل بعض الأنظمة الإدارية المعاصـرة أن المسئول لا يجري العـقوبة وحده، وإنما يـحيل الأمر إلى لجنـة مختـصة بدراسـة القضـايا وتحديد العـقوبات المناسبـة، فإن هذا النظام يبـعد حالة التـصرف مع الغضب تمـامًا، ويتيح الفـرصة لدراسة الأمـور بتؤدة وروية ومشورة بين عـدد من الأفراد، فهو أدنى إلى التـثبت والعدالة، وأبعد من المجازفة والجور.

وإن مما يحمل المسـئول أحيانًـا على القسوة والحيف مـحاولة الإبقاء على هيـبة السلطة والظهور أمام جلسائه ومن تحت إدارته بمظهـر القوة، وقد يداهنه من حوله بتحريضه على المخالف لظنهم بأن ذلك يكسبهم رضاه، فيسهمون بذلك في حمله على الظلم.

وقد يحـصل ما هو ضـد ذلك إذا كان لبـعض الجلساء أو الإداريـين غرض في التخفيف عن المخـالف فيحاولون أن يؤثروا على المسئول ليعـفو عن المخالف، وقد يترتب على ذلك تضييع بعض الحقوق أو الجرأة على المخالفة.

ولذلك فإن من أقـوى العواصم من الانحـراف في الحكم أن تحال القـضايا إلى لجان مـتخصـصة لدراستـها وتقدير العـقوبة المناسبـة مع حسن اختـيار أعضـائها ومراقبتهم.

وإن مما أوصى به عمر بن عـبد العزيز في هذا الخطاب أن لا يستـجلب المسئول بما يقـدمه من خـير وإصلاح ثـناء الناس ولا جزاءهم، وإنما يطلب من الله تعـالى الأجر والثواب على عـمله ليكون خالصًا، وإذا كان كذلـك فإنه أدعى للنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة.

خبره مع المرأة التي فرض لبناتها من بيت المال:

أخرج ابن عبد الحكم رحمه الله، قـال: وقدمَتْ امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيـز، فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حـاجب؟ فقالوا:

لا فَلجِي إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها، وفي يدها قطن تعالجه، فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلي، فلما جلست المرأة رفعت بصرها فلم تر في البيت شيئًا له بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب، فقالت لها فاطمة: إنما خَرَّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك.

قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئر في ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت -وهو يكثر النظر إلى فاطمة -فقالت لها المرأة: استتري من هذا الطيان فإني أراه يديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين.

قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلًّى كان له في البيت يصلي فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هي هذه فأخذ مكتلا له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خَيْرَه يناولها إياه، ثم أقبل عليها فقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كُسْد، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهن، فجعل يقول: كسل كسد، ويبكي، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي العراق، فقال سمِّي كبراهن، فسمتها ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربع استفزَّها الفرح فدعت له فجزَّته خيرًا، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهن حيث كنت تُوْلين الحمد أهله، فَمرِي هؤلاء الأربع يُفِضْن على هذه الخامسة.

فخرجَتْ بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والي العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه في شيء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها(١).

في هذا الخبر عدة مواقف:

الأول: شهادة تلك المرأة على زهد عمر بن عبد العزيز، حيث لم تجد في بيته شيئًا يُذكر من الأثاث، فيئست من الحصول على ما يصلح شأنها من صاحب ذلك

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٩.

البيت الخرب، ولكن زوجة عمر فاطمة بنتَ عبد الملك طمأنتها، حيث بينت لها أن خراب بيت أمير المؤمنين، إنما هو بسبب عمارته بيوت الرعية، حيث اقتصد في الإنفاق على أسرته وأقاربه، ووسع في الإنفاق على الرعية.

الموقف الثاني: في تواضع عمر بن عبد العزيز البالغ، وقد ظهر ذلك في قيامه بإصلاح ما خرب من بيته بنفسه، حيث صار يخلط الطين ويصلح به ما تهدم من بيته، حتى ظنَّته تلك المرأة طيَّانا، وحيث قام بعد ذلك بانتقاء جيد الفاكهة ومناولته تلك المرأة المسكينة.

ولا شك أن تواضع الكبار وقيامهم بمثل هذا العمل المدهش، يعتبر من أهم أسباب تقوية المحبة وتثبيت الولاء، كما أنه من أبلغ الوسائل لتربية الأمة على التواضع، لأن من في قلبه ميل إلى الكبر سيجد في نفسه صدودًا عن ذلك، وقناعةً بالاعتدال في السلوك، تأسيًا بأولئك الأكابر.

والموقف الثالث: في اهتمامه بأمر تلك المرأة المسكينة حيث فرض لها ولبناتها ما يكفيهم من بيت مال المسلمين، بينما نجده قويًا متصلبًا في معاملة الأكابر، الذين يريدون أن يأخذوا من مال المسلمين ما لا يحل لهم، فهو لين متواضع لطلاب الحق، شديد قوي على طلاب الباطل.

الموقف الرابع: في جواب عمر لتلك المرأة حينما شكرته لمَّا فرض لبنتها الرابعة بعد أن كانت تشكر الله تعالى، حيث أوقف فرض العطاء لبنتها الخامسة وأمرها بأن تُفيض عليها من عطاء أخواتها، وهذا الموقف يبين عظمة فهم عمر لتوحيد الله تعالى، ومبلغَ تذكره لعظمته، وحمدَه لنعمته، وقد قام بما قام به من هذا التصرف ليعطى تلك المرأة وغيرَها درسًا عمليًا في التوحيد هو أبلغ من الدروس النظرية.

وليس معنى هذا أن شكر المحسنين والدعاء لهم يتنافى مع التوحيد فإن النبي ﷺ يقول «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[1]، ويقول «من صنع إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُرَوا أنكم قد كافأتموه»[2]، وعمر بن

---

(١) مسند أحمد ٢/٢٥٨.

(٢) سنن أبي داود، رقم ١٦٧٢، الزكاة ١/ ٣١٠، مسند أحمد ٢/٦٨.

عبد العزيز من أعلم المسلمين بالسنـة ولكن لما بدأت تلك المرأة بحمد الله تعالى ثم قطعت ذلك وتحولت إلى شكره هو والدعاء له أحس بأن ذلك مخلٌ بالتوحيد لأن فيه إشعارًا بتقدير شكر المخلوق على شكر الخالق جل وعلا.

إنصافه الذميين من أهل نجران:

أخرج المؤرخ أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري من خبر الحسن البصري قال: جاء راهبا نجران إلى النبي ﷺ فعرض عليهما الإسلام فقالا: إنا قد أسلمنا قبلك، فقال، كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث، أكلكما الخنزير، وعبادتكما الصليب، وقولكما لله ولد. قالا، فمن أبو عيسى قال الحسن: وكان ﷺ لا يعجل حتَّى يأمره ربُّه فأنزل الله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٨، ٥٩].

فقرأها رسول الله ﷺ عليهما ثم دعاهما إلى المباهلة(١) وأخذ بيد فاطمة والحسن والحسين فقال أحدهما لصاحبه: اصعد الجبل ولا تباهله فإنَّك إن باهلتهُ بُؤْتَ باللعنة، قال: فما ترى قال: أرى أن نعطيه الخراج ولا نباهله.

ثم ذكر كتاب النبي ﷺ إليهم وفيه أنه وضع عليهم ألفي حلة في كل عام.

ثم ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه أمضى ذلك عليهم.

ثم ذكر رواية من خبر سالم بن أبي الجعد قال: كان أهل نجران قد بلغوا أربعين ألفًا فتحاسدوا بينهم فأتوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا: أجْلِنا، وكان عمر قد خافهم على المسلمين فاغتنمها فأجلاهم، فندموا بعد ذلك وأتوه فقالوا: أقِلْنا، فأبى ذلك، فلما قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتوه فقَالوا: ننشدك خطك بيمينك(٢) وشفاعتك لنا عند نبيك إلا أقَلْتَنا، فقال: إن عمر كان رشيد الأمر وأنا أكره خلافه.

وذكر أن بعضهم جلا إلى الشام وبعضهم إلى الكوفة ونزلوا في ناحية سُمِّيت النجرانية باسمهم.

---

(١) المباهلة: الملاعنة وهي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولون لعنة الله على الظالم منا.

(٢) يعني أنه هو الذي كتب لهم الكتاب في عهد رسول الله ﷺ.

وذكر أنهم أتوا إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وأنه كتب إلى عامله على الكوفة الوليد بن عقبة بأن يضع من جزيتهم مائتي حلة لوجه الله تعالى وعُقْبَى لهم من أرضهم وقال: وإني أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة.

وذكر أنهم لما ولي معاوية رضي الله عنه أو يزيد بن معاوية شكوا إليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم وأنهم أحضروا كتاب عثمان بن عفان رضي الله عنه بما حطّ عنهم من الحلل، وقالوا: إنما ازددنا نقصانا وضعفا فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة.

قال: فلما ولي الحجاج بن يوسف العراق وخرج ابن الأشعث عليه اتهم الدهاقين بموالاته واتهمهم معهم فردهم إلى ألف وثمانمائة حلة، وألزمهم بنوع جيد منها.

قال: فلما ولي عمر بن عبد العزيز شكوا إليه فناءهم ونقصانهم وإلحاح الأعراب بالغارة عليهم وتحميلهم إياهم المؤن المجحفة بهم وظلم الحجاج إياهم، فأمر فأحصوا فوجدوا على العشر من عِدَّتهم الأولى، فقال: أرى هذا الصلح جزية على رؤوسهم وليس هو بصلح على أرضيهم، وجزية الميت والمسلم ساقطة فألزمهم مائتى حلة قيمتها ثمانية آلاف درهم(١).

فهذا الخبر يبين لنا شيئًا من علم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعدله ورحمته، فهو قد أدرك بأن جزية الذميين من أهل نجران على رؤوسهم وليست على أراضيهم، والأفراد ليس عددهم ثابتًا بل يزيدون وينقصون، ولما كان عددهم قد أصبح على العشر من عددهم أيام رسول الله ﷺ فإن جزيتهم ينبغي أن تنقص إلى العشر، وهذا من الفقه في معرفة السنة النبوية، وقد كَلَّل فهمه هذا بالعدل والرحمة، حيث أنقص جزيتهم إلى العشر، وهو بهذا يكون قد طبق سنة النبي ﷺ في تقدير جزيتهم.

إنصافه الذميين من أهل قبرص:

أخرج البلاذري من طريق محمد بن سعد عن الواقدي بإسناده قال: لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم، ثم لما ولي هشام

(٢) فتوح البلدان/ ٨٦-٩١.

ابن عبد الملك ردها، فجرى ذلك إلى خلافة أبي جعفر المنصور فقال: نحن أحق من أنصفهم ولم نتكثر بظلمهم فردهم إلى صلح معاوية[١].

فهذا أيضًا مثل من إنصاف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في معاملة الذميين من أهل قبرص حيث وضع عنهم الزيادة التي رآها ظلمًا لهم، وقد تأسى به أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور في هذه العدالة رحمهما الله تعالى.

إنصافه أحد المظلومين من اليمن:

ذكر أبو الحسن علي بن محمد الماوردي أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل ورد من اليمن متظلمًا فقال:

تدعون حيران مظلومًا ببابكم ... فقد أتاك بعيد الدار مظلوم

فقال ما ظلامتك؟ فقال غصبني الوليد بن عبد الملك ضيعتي، فقال: يا مزاحم ائتني بدفتر الصوافي فوجد فيه: أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان، فقال: أخرجها من الدفتر وليكتَبْ برد ضيعته إليه ويطلق له ضِعْف نفقته[٢].

وهكذا طمع في عدل أمير المؤمنين أبناء البلاد البعيدة، فجاء هذا الرجل من اليمن يطلب حقه الذي اغتُصب منه، فأعاد إليه عمر أرضه وأعطاه ضِعْف نفقته التي صرفها في سفره، ليكون ذلك تعويضًا عما صرفه في قدومه وما سيصرفه في عودته، لأن من حقه أن تعود إليه أرضه المغتصبة وهو في بلده من غير أن يخسر شيئًا.

سؤال عطاء عن أحوال عمر بن عبد العزيز:

أرسل عطاء بن رباح إلى فاطمة بنت عبد الملك يسألها عن أحوال عمر بعد موته فقالت: أفعلُ، إن عمر رحمة الله عليه كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته، إلى أن أمسى مساءً وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجه الذي كان من ماله، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعًا رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه،

---

(١) فتوح البلدان/ ٢١٠-٢١١.
(٢) الأحكام السلطانية/ ١٠٣.

يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، وتخرج لها نفسه، حتى برق الصبح فأصبح صائمًا، فدنوت منه فقلت: يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل فعليك بشأنك وخلِّيني وشأني، قالت: فقلت: إني أرجو أن أتَّعظ، قال: إذًا أخبرك، إني نظرت فوجدتُني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشباهَ ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلي عنهم، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم، فخفت أن لا يقبل الله تعالى مني معذرة فيهم، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازددت لها ذكرًا ازددت منها خوفًا، فاتَّعظي إن شئت أو ذَرِي[1].

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التى تحملها، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، وبالرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشي أن يكون قد بقي من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته، فيكون مسئولاً عنه.

وفي تذكُّره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد، فأصبح ذلك دافعًا له إلى العدل والرحمة، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة.

وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف من الزلل، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات، وقوي أمام جميع التحديات، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم، وصغر في نظره كل أمر جسيم.

خبره مع الخوارج:

قال المؤرخ أبو الحسن محمد بن الأثير: في هذه السنة -يعني سنة مائة- خرج شوذب- واسمه بسطام- من بني يشكر في جوفي، وكان في ثمانين رجلا، فكتب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٧٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٦٠، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤٥/ ١٩٧.

عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد عامله بالكوفة: أن لا يحركهم حتى يسفكوا دمًا ويفسدوا في الأرض، فإن فعلوا وجه إليهم رجلا صليبًا حازمًا في جند، فبعث عبد الحميد محمد بن جرير البجلي في ألفين، وأمره بما كتب به عمر.

وكتب عمر إلى بسطام يسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يتحرك، فكان في كتاب عمر: بلغني أنك خرجت غضبًا لله ولرسوله ولست أولى بذلك مني فهلم إلي أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك.

فكتب بسطام إلى عمر: قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حبشيًا اسمه عاصم ورجلا من بني يشكر، فقدما على عمر بخناصرة فدخلا إليه فقال لهما: ما الذي أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم؟ فقال عاصم: ما نقمنا سيرتك، إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضى من الناس ومشورة أم ابتزرتهم أمرهم؟ فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها، وعهد إلي رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره علي أحد ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضى بكل من عدل وأنصف مَنْ كان من الناس، فاتركوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم.

فقالا: بيننا وبينك أمر واحد قال: ما هو؟ قالا: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم، فإن كنت على هدى وهم على الضلالة فالعنهم وابرأ منهم، فقال عمر. قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانا، وقال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقال الله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقد سميت أعمالهم ظلمًا وكفى بذلك ذمًا ونقصًا، وليس لعن الذنوب فريضة لابد منها فإن قلتم: إنها فريضة فأخبرني متى لعنت فرعون؟ قال: ما أذكر متى لعنته قال:

أفيسعك أن لا تلعن فرعــون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون؟

قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقــر به وبشــرائعه قــبل منه فــإن أحدث حــدثًا أقيم عــليه الحــد، فقــال الخارجي: إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده، قال عــمر: فليس أحــد منهم يقول: لا أعــمل بسنة رسول الله ﷺ ولكــن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء.

قال عاصم: فــابرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمــر: أخبرني عن أبي بكر، وعمــر أليســا على حق؟ قالا: بلى قــال أتعلمان أن أبا بكر حــين قاتل أهل الردة سفك دمــاءهم وسبى الذراري وأخذ الأمــوال؟ قالا: بلى قــال: أتعلمون أن عمر رد السبايا بعده إلى عشــائرهم بفدية؟ قالا: نعم قال: فهل برئ عمر من أبي بكر؟ قالا: لا، قال: أفتبرؤون أنتم من واحد منهما؟ قالا: لا.

قال: فــأخبــرني عن أهل النهروان وهم أســلافكم هل تعلمان أن أهل الــكوفة خرجــوا فلم يسفكوا دما ولم يأخــذوا مالا. وأن من خرج إليهم من أهل البــصرة قتلوا عــبد الله بن خباب وجــاريته وهي حامل؟ قالا: نعم قــال: فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واســتعرض؟ قالا: لا، قال: أفتبــرؤون أنتم من أحد من الطائفتين؟ قالا: لا، قال: أفيــسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصــرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يســعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؟ فاتقوا الله فإنكم جهــال تقبلون من الناس ما ردَّ عليهم رســول الله ﷺ وتردُّون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خــاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده، فــإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن مــحمدًا عبده ورســوله وكان من فعل ذلك عند رســول الله آمنا وحــقن دمه ومــاله وأنتم تقــتلونه، ويأمن عندكم ســائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم.

فقال اليشكري: أرأيت رجلا ولي قومًا وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مــأمون، أتراه أدى الحق الذى يلزمه لله عز وجل أو تــراه قد سلم؟ قال

عمر: لا قال: أفتُسْلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق؟ قال: إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي، قال: أفترى ذلك من صُنع من ولاه حقا؟ فبكي عمر وقال: أنظراني ثلاثا.

فخرجا من عنده ثم عادا إليه فقال عاصم: أشهد أنك على حق فقال عمر لليشكري: ما تقول أنت؟ قال: ما أحسن ما وصفت ولكن لا أفتات على المسلمين بأمر، أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم، فأما عاصم فأقام عند عمر فأمر له عمر بالعطاء فتوفي بعد خمسة عشرا يومًا، فكان عمر بن عبد العزيز يقول: أهلكني أمر يزيد وخُصمت فيه فأستغفر الله[1].

في هذا الخبر تبين لنا بروز أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وتفوقه في مجالات عديدة، منها:

١- أنه التزم المنهج الإسلامي في معاملة المخالفين، فحينما خرج أولئك الخوارج في عهده لم يسلك معهم طريقة أكثر الولاة الذين سبقوه، حيث كانوا يعقدون الألوية لقتالهم من غير أن يدخلوا معهم في حوار علمي، بل أرسل إلى أميرهم وطلب منه أن يحضر لمناظرته، وأبدى استعداده للرجوع عما هو عليه إذا تبين له أن الحق في غيره، وهذا التنزل مع الخوارج الذين يعتبرون من أعنف المخالفين، يدل على تجرده من هوى النفس، وأن هدفه الأعلى تطبيق الإسلام كما جاء من عند الله تعالى.

٢- غزارة علمه بالكتاب والسنة والتاريخ، حيث دخل في حوار مع قوم قد كانوا فرغوا أنفسهم لقضايا علمية محددة خالفوا فيها السواد الأعظم من المسلمين وتعمقوا فيها واستعدوا للجدل والمناظرة حولها، فأفحمهم وقطع حججهم واستطاع أن يؤثر على الرجلين اللذين أوفدوهما حتى اقتنعا برأيه في أغلب القضايا التي ناظراه فيها.

٣- حينما ناقشه الخارجيان في ولاية يزيد بن عبد الملك وظهر له الحق في ذلك لم يكابر ولم يغير الحقائق، ولم يدافع عن الواقع الذي هو فيه وإن كان باطلا، بل

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١٥٥-١٥٦، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٢٧-١٣١، وتاريخ الطبر ٦/ ٥٥٥.

ظهر منه ما يدل على اعترافه بأن ذلك الأمر باطل، وقوله «أهلكني أمر يزيد وخُصمت فيه فأستغفر الله» يدل على أنه كان يرى أن تصحيح ذلك الأمر سيوقع في فتنة كبيرة يترتب عليها سفك دماء المسلمين، وهو شديد الورع في ذلك.

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الوليد بن مسلم قال، قال الأوزاعي: لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب إليه رجل من الشراة[1] يقال له عمرو بأبيات:

قل للمولّى على الإسلام مؤتنفا ... وقد يرى أنه رثٌّ القوى واهي
إذ رابه معشر عدُّوه مأكلة ... بنخوة الملك والإسراف والباه
إنّا شرينا بدين الله أنفسنا ... نبغي بذاك إليه أعظم الجاه
ينهى الولاة بحد السيف عن سرف ... كفى بذاك لهم من زاجر ناهي
وإن قصدت سبيل الحق يا عمرا ... آخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنت واعظهم ... في جور سيرتهم فالحكم لله

قال فأجابه عمر بن عبد العزيز:

يا أيها الرجل المهدي نصيحته ... إن المحاسن والتوفيق بالله
إن كان أمر من السلطان تنكره ... فما عرى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتاب كتاب الله نقرؤه ... مصدق الوحي فينا آمر ناهي
فقد يَزِلُّ الذي يبغى الهدى رهقًا ... عن الشريعة وهو العالم الداهي
الملك يا عمرو ملك الله خالقنا ... والحكم يا عمرو مردود إلى الله

قال فأتاه فبايعه ولم يخرج عليه[2].

وهذا الخبر يدل على تفوق أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في إنشاء الشعر حيث رد بهذه الأبيات الشعرية على البديهة، وهي أبيات رصينة في مبناها ومعناها.

---

(١) يعني من الخوارج.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٩٧.

جهوده في الدعوة والإصلاح

من توجيهاته في آداب الصحبة:

إن من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله، القيام بتوجيه أفراد الأمة نحو السلوك القويم، ومن نماذج ذلك ما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال: ولما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه، فقال: يا معشر المسلمين إن تقوموا نقم وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، إن الله فرض فرائض وسن سننًا، من أخذ بها لَحِق، ومن تركها مُحِق، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس، يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، ويدلنا من العدل إلى ما لا نهتدي إليه، ويكون عونا لنا على الحق، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس، ولا يغتب عندنا أحدًا، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا[1].

ففي هذا الخبر مثل من تواضع عمر ورغبته الأكيدة في القضاء على العادات الموروثة التي أشبه بها الولاة آنذاك الأكاسرة والقياصرة.. وعزمٌ صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين.

وعمر بهذا يَحجُم دافعَين قويين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته في مظاهرهم.. أولهما طموح النفس نحوالظهور وفرض السلطة والهيبة في قلوب الناس، وثانيهما: رغبة عشيرته الملحة في الإبقاء على هذه المظاهر، وتشنيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه.

ولكنه تغلَّب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوي، وكان الدافع الذي يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله تعالى ورغبته فيما عنده، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل الدنيوي، وكان هذا الدافع عنده أقوى بكثير من الجواذب الأرضية، فنجح في إلجام نفسه عن هواها، وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة، وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن يكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤١ وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٠٦، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٥٢، وتاريخ دمشق ٤٥/ ١٦٩.

وفي قوله «إن الله فرض فرائض» بيان لأسباب السعادة والشقاوة الحقيقية في الدنيا والآخرة، فمن طبقها لحق بركب المتقين في الدنيا، وأكرمْ به من رفقة صالحة، وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة، وأكرمْ به مآل وعاقبة.

ثم رسم منهجه الذي يريده ممن يريد صحبته في مجالسه حيث حدد لهم الخصال الخمس التي يريدها منهم، وكأنه يقول لهم إن عهد النفعيين الذين يصحبون السلطان لتيسير مصالحهم ومصالح عشائرهم قد انتهى، فمن كان يريد صحبة الأمير فليصحبه للنظر في حوائج المسلمين العامة، والنظر في رفع مستوى الأمة في مجالات الخير، وتقريب الصلة بينها وبين ولاتها، وذلك بإيصال حاجة من لا يستطيع الوصول بنفسه، وكم في الأمة من أمثال هؤلاء الذين يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره لا يستطيع أن يجاوز بها محيط أسرته، والذين يقومون بذلك هم من روّاد الإصلاح في المجالين: مجال المسئولين: حيث يعينونهم على أداء مسئوليتهم في أمور قد لا تصل إليهم وهم مسئولون عنها، وفي مجال أولئك المغمورين الذين قد لا يصلون إلى قضاء حوائجهم إلا بمثل هؤلاء المصلحين.

إن الذين يبذلون جاههم لوجه الله تعالى قليل، وإذا فعلوا ذلك فربما بدؤوا وساطة الخير ثم قد لا يكملونها، وكأنما أرادوا مجاملة صاحب القضية ورأوا أن ما قاموا به يكفى في ذلك، ولكنهم في الحقيقة لم يصنعوا له شيئًا إذا لم يساعدوه على نجاح قضيته، أما الذين يريدون وجه الله تعالى فإن الذين يهمهم هو النظر في إسعاد إخوانهم المسلمين والسعي في إنهاء قضاياهم ليحصلوا على ثواب الله العظيم الذي بذلوا جاههم من أجله.

وفي الخصلة الثانية يوصى عمر من أراد صحبته أن يدلّه من العدل إلى ما لا يهتدي إليه، وهي رغبة صادقة من عمر رحمه الله في الوصول إلى كمال العدل، فبالرغم من اجتهاده في ذلك فإنه يدرك أن الحاكم قد تخْفَى عليه بعض جوانب العدل، فإذا كان أصحابه من المهتمين بهذا الجانب، وقد أدركوا رغبته في ذلك فإن أفكارهم تَتَفَتَق على جوانب من العدل قد لا تخطر ببال ذلك الوالي وإن كان عظيم الاهتمام بالعدل لأنه لا يملك إلا فكرًا واحدًا، لكنه حينما يجنِّد من حوله

لخدمة هذه القضية التي وقف عليها حياته فإنه سيملك نتاج أفكار كثيرة، تُهدي إليه من درر النصائح مالا يخطر له على بال.

وهكذا كانت عظمة العظماء من الأمراء والقادة الذين رفعوا في حياتهم قضية كبرى، ووجهوا كل اهتماماتهم واهتمام من حولهم نحو هذه القضية، فإنهم ينجحون في قضيتهم غالبًا، سواء كانت من قضايا الدنيا البحتة أو من قضايا الدنيا والآخرة، بسبب مشورة الناصحين الذين يجندون عقولهم لخدمة تلك القضية.

وفي الخصلة الثانية يقول «ويكون لنا عونًا على الحق» وعُمَر بهذا يفتح المجال واسعًا أمام روّاد الإصلاح الذين يرون الحق واضحًا ويتمنون أن تكون لهم قدرة على تنفيذه، فقد فُتح الباب أمامهم في عهد عمر من أعلى سلطة في البلاد، ولا شك أن من لديه أي منهج للإصلاح وتنفيذ الحق سيسارع إلى تلبية هذا النداء، مستفيدًا من ذلك التعاون المتبادل بين الراعي والرعية.

ثم يقول «ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس»، فأداء الأمانة دليل على قوة الإيمان وطهارة النفس من الأنانية وحب الدنيا، وعلى طموحها إلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، وذكر أداء الأمانة إلى الناس لبيان أصالة الأمانة واشتمال صاحبها على الإخلاص، لأن من يؤدي الأمانة لأصحاب السلطة ولا يؤديها لعامة الناس، قد يفعل ذلك خوفًا من صاحب السلطة ومراءاة له، لكن حينما يكون أمينًا مع عموم الناس فإن هذا يدل على إخلاصه لله تعالى.

ثم قال «ولا يغتب عندنا أحدًا» وهذه الخصلة من الخصال التى أوصى بها العباس ابنه عبد الله رضى الله عنهما في مجالسته لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حتى تظل ثقته به قائمة.

وذلك أن من تكلم في الآخرين عند المسئولين فهو رجل وصُولي، يحاول الوصول إلى كسب ثقة المسئول على حساب تجريحه لأعراض إخوانه المسلمين، وهؤلاء الذين يغتابون الناس عند المسئولين هم من النوع الذى يستهويه المجد الدنيوي ويريد الوصول إليه بدون تضحية ولا نصب، فتلوح لهم أعراض إخوانهم

كطريق سهل للوصول، ويجدون أحيانًا آذانًا صاغية ورغبة في الاستزادة فلا يبالون في رمي جثث إخوانهم والتسلق عليها للوصول إلى أهدافهم الدنيوية.

ولقد كان اختيار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز موفقًا في هذه الشروط التي اشترط توفرها فيمن يريد صحبته، وخَتْمها بهذا الشرط دليل على فقهه الاجتماعي، وإدراكه العميق لما للغيبة من آثار سيئة، خاصة في العلاقة بين الحاكم والمحكومين وهو المجال الذي اهتم به عمر وحدَّد هذه الشروط من أجله.

من تذكيره بالآخرة:

إن من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الدعوة قوله في خطبة له: إني لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون فوجدت المصدِّق به أحمق، والمكذب به هالكًا. ثم نزل[1].

وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكرة حية بمصير الإنسان بعد الموت، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لا يُعدُّ العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقًا أحمق، حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه.

أما المكذب به فهو هالك لأن من كذب بالبعث فهو كافر مخلد في النار يوم القيامة.

من جهوده في تصحيح المفاهيم الخاطئة:

إن من مظاهر العظمة في حياة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه جمع بين السياسة الواعية العادلة والعلم والدعوة، فمن مواقفه في الدعوة قوله في إحدى خطبه: أما بعد أيها الناس فلا يطولنَّ عليكم الأمد، ولا يبعدَنَّ عليكم يومُ القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يَستَعْتب من سيء ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدُّون الهارب من ظلم إمامه عاصيًا، ألا وأن أولاهما بالمعصية الإمام

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤٢.

الظالم، ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينا لا يرون الحق غيره، ثم قال: إنه لحبيب عليَّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله[١].

ففي هذه الخطبة يُذَكِّر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، فلينظر إلى الموت الذي قد يفاجئه في أية لحظة، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التي سوَّد بها صحيفته، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبيِّض به صحيفته، ويندم حينما لا ينفع الندم على مافاته في حياته يوم أن كان قادرًا على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح.

ثم يبين أن السلامة كل السلامة في اتباع سنة رسول الله ﷺ، وهذا بيان لأحد عنصري العمل الصالح، وهما الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة، وهو بهذا يعالج واقعًا لا ينقص العملَ فيه الإخلاصُ وإنما ينقصه اتباعُ السنة، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضي الله عنهم، وفسادُ بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التي لا تتفق مع أهوائهم.

ثم يبين أحد العواصم التي تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة حيث يقول «ولا طاعة لمخلوق في معصية الله» فإذا كان بعض الولاة قد تسوِّل لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أو مجاملة الآخرين بأن يأمروا الناس بمعصية الله تعالى، أو يمهدوا السبل لذلك فإنه لا طاعة لهم، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات وهو ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة، فإذا تحددت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد في المجتمع وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح.

ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصيًا ليس له اعتبار في النظر الشرعي، لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التي يتخذها للخلاص من الظلم، وأولَى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤٣.

وكون عمر يبين هذا وهو في أعلى موقع من المسئولية، دليل على تجرده من حظ النفس ومن العصبية للقرابة وإخلاصه لله تعالى.

ثم يصف الواقع الاجتماعي الذي اختلطت فيه العادات بالدين، والبدع بالسنن، ونشأ عليه أفراد المجتمع، وتربى على توجيهه من أسلم من العجم، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين، وحينما يختلط العرف الاجتماعي فيتسرب إلى العرف الإسلامي بعض الأعراف الجاهلية فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع، وتَتَشرَّبه قلوبهم لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائرة، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلِّصوا العرف الاجتماعي الإسلامي من تلك الأخلاط المتسرِّبة المتراكمة على مر الزمن، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحهم ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئًا من القداسة، ولكن حينما يَنْبُع الإصلاح من أعلى قمة في المسئولية كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول، لأن معه ما خولَّه الله تعالى من طاعة الرعية ما دام في طاعة الله تعالى إلى جانب قوة السلطان المعهودة.

إنكاره العصبية القبلية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن، وكان مما جاء في كتابه: إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذُكر لي عن رجال من أهل البادية، ورجال أمِروا حديثًا، ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله اغتروا فيه بالله غرة عظيمة، ونسوا فيه بلاءه نسيانًا عظيمًا، وغيروا فيه نِعَمَه تغييرًا لم يكن يصلُح لهم أن يبلغوه، وذُكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضَر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاية على من سواهم، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة الله، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله أيةَ منزلةٍ نزلوا، ومن أي أمان خرجوا، أو بأي أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقي بنيَّته يشقى، وأن

النار لم تُخلق باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قول الله في كتابه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحلف وقال لا حِلْف في الإسلام قال: وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصنًا، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، تحذيرًا بعد تحذير، وأذكرهم تذكيرًا بعد التذكير وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصيةَ كل دابَّة، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإني لم آلُكمْ بالذي كتبت به إليكم نصحًا، مع أني لو أعلم أن أحدًا من الناس يحرّك شيئًا ليؤخذ له به. أو ليدفع عنه، أحرصُ -والله المستعان- على مَذلته مَن كان: رجلاً أو عشيرةً أو قبيلة أو أكثر من ذلك، فادعُ إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به، فإنه هو الرشد ليس له خفاء، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عونًا بألسنتهم، وإن كثيرًا من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وألفتنا وذات بيننا والسلام[(١)].

في هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافا خطيرًا طرأ على المجتمع الإسلامي آنذاك، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعي، قد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التي تقوم على القبائل والعشائر، فيعطي الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل وسواء بالعدل أو بالظلم، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها، وقد أغفلوا بذلك الرابطة الإسلامية التي شرف الله تعالى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٠٣-١٠٦.

العرب بها، حتى أصبحوا بها إخوة في الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وسادوا بجماعتهم العالم.

وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين الذين خرجوا من بلاد العرب للجهاد في سبيل الله تعالى يتحاربون بينهم بدعوى قبليَّة، مما سبب تأخرًا في تقدم الجهاد، وجرأ أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة، ووصلت الحال في بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة في تلك البلاد قرب أفراد قبيلته وقواهم وتقوى بهم، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، وما ذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التي هي نعمة كبرى على المسلمين، واتخاذ الروابط الجاهلية بديلاً عنها.

اهتمامه بشكر النعمة:

لقد تفوق عمر بن عبد العزيز بالعلم، والاهتمام بالدعوة، فمن ذلك أن عديًّ بن أرطأة واليه على البصرة كتب إليه يقول: لقد أصاب الناسَ من الخير خيرٌ حتى خشيت أن يبطُروا، قال: فكتب إليه عمر: إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار رضي من أهل الجنة بأن قالوا ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] فمُرْ من قِبَلك أن يحمدوا الله[(١)].

وهذا يعتبر إدراكًا عاليًا من عمر رحمه الله لشكر نعمة الله تعالى، وهو مثل من فهمه العالي لتوحيد الله جل وعلا، فإن النعمة مهما كثرت فإنه لا ضرر منها على توحيد المسلم ما دام حامدًا لله تعالى، شاكرًا لأنعمه، بل إن زيادة النعمة تقتضي زيادة الحمد والشكر فيزداد العبد التقي إيمانًا وعملاً صالحًا.

واستشهد عمر رحمه الله بقول أهل الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ وقد وفق فى ذلك، فليكن المسلم فى الدنيا على سنن أهل الجنة في الحمد والشكر، حيث إن الله تعالى سيوفق أهل الجنة إلى أعلى المقامات.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٩.

اهتمامه بتعليم أهل البادية:

اهتم عمر بن عبد العزيز بدعـوة أهل البادية إلى الإسلام وتعليمهم، ومن أمثلة اهتمـامه بهذا الجـانب إرساله يزيد بن أبى مالك والحـارث بن محمـد إلى البادية ليعلّما الناس السنة، وأجرى عليهما الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لآخذ على علم علّمنيـه الله أجراً فَذُكر ذلك لعمـر بن عبد العزيز فـقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسا، وأكثر الله فينا مثل الحارث(١).

وهذا دليل على فـقه عـمر حيث أقـر يزيد بن أبي مـالك على أخذ المسـاعدة المادية، لأنها في مقـابل تفرغه لتعليم العلم حتى لا يـكون مضطراً إلى العمل في طلب الرزق فيشـغله ذلك عن التعليم، وحيث أثنى على الحارث بن مـحمد على ورعه وطلبه الكمال في دينه.

وإن موقف الحارث هذا يعـتبرَ مثـلاً جيدًا من أمثلة الورع وشكر النعـمة حيث اعترف بنعمة الله عليـه بالعلم وعرف أن مِن شكْرِ ذلك أن يهب علمه لمن شاء بلا أجرة ولا مكافأة من الدولة.

اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام:

إضافـة إلى ما تقدم ذكـره من أن أميـر المؤمنين عمر بن عـبد العـزيز قد وضع الجزية عمن أسلم ومـا كان لذلك من أثر من دخول الكفار في الإسـلام، فإنه قد كتب إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسـلام، ومن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة مائة للهجرة حيث قال: وفيها كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم مـا للمسلمين وعليهم ما على المسلمين- وقد كانت سيرته بلغتهم- فأسلم جيسيه بن داهر(٢).

وما جـاء في هذه الرواية من ذكر ملوك السند المقصـود بهم من لم يدخلوا في الإسلام قبل ذلك، والمعروف في فتوح السند أن ملوك السند قد دخلوا في الإسلام

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٦٠ لابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦٠.

(٣) الكامل في التاريخ ٤/ ١٦٠، وقد جاء اسم هذا الملك في الكامل جيشبة بن زاهر، وهو خطأ والصواب ما أثبته كما تقدم كثيراً في فتوح السند.

ما عدا جيسيه بن داهر الذي فر إلى كشمير، فلعل صواب الرواية أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ملوك السند والهند.

وقد جاء في خبر ذكره ابن تَغْرِي بَرْدِي ما يؤيد ذلك حيث قال ابن عساكر: كتب ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الهند والسند ملك الأملاك، الذي هو ابن ألف ملك وتحته ابنة ألف ملك، والذي في مملكته نهران يُنبتان العود والكافور والأكرة التي يوجد ريحها من اثني عشر فرسخا، والذي مربطه ألف فيل وتحت يده ألف ملك.. إلى ملك العرب:

أما بعد: فإن الله قد هداني إلى الإسلام فابعث إليّ رجلا يعلمني الإسلام والقرآن وشرائع الإسلام، وقد أهديت لك هدية من المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها، فإنما أنا أخوك في الإسلام، والسلام(١).

ومن أخبار انتشار الإسلام بين الكفار في عهد عمر بن عبد العزيز بسبب دعوته، ما ذكره البلاذري في أخبار فتح المغرب والأندلس قال: ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ولى المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، فسار أحسن سيرة، ودعا البربر إلى الإسلام، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتبًا يدعوهم بَعْدُ إلى ذلك، فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب(٢).

وهكذا استثمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الفتوح الإسلامية التي سبقته للدعوة إلى الإسلام، فإن دخول الناس في الإسلام هو الهدف من تلك الفتوحات، ولقد كان تجبُّر بعض الولاة السابقين وظلمهم من أسباب تعويق انتشار الإسلام، لأن الجهاد ما هو إلا فتح طرق لنشر الإسلام، وذلك بإزالة الحكومات الطاغية التي تحول بين شعوبها والتعرف على الإسلام، فإذا فتح الطريق وزالت العوائق فإن الأمم تنجذب إلى الإسلام بقدر ما ترى من أخلاق أمة الإسلام وعدالة حاكميها، ولقد كان عمر بن عبد العزيز في قمة الأخلاق والعدالة، واختار ولاة

(١) النجوم الزاهرة ١/ ٢٤٠.

(٢) فتوح البلدان/ ٣٢٤.

اجتهد في انتقائهم ليمثلوا الإسلام ويدعوا الناس إليه بأقوالهم وأفعالهم، فكان لذلك نتائج طيبة في إقبال الناس على الدخول في الإسلام.

اهتمامه بإصلاح المجتمع:

لم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز على الدعوة، بل كان اهتمامه كبيراً بإصلاح المجتمع والأمر بإزالة ما يتفشّى فيه من المنكرات، وقد كتَب في ذلك إلى أحد ولاته كتابًا طويلاً بليغًا، نورد بعض فقراته لأهميته وعظيم فائدته، وفيه يقول: أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنِّقَمات ما قُمِع فيهم أهل الباطل، واستخفي فيهم بالمحارم، فلا يَظْهَرُ من أحدٍ منهم محرمٌ إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي والمداهنين لهم، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزّل من كتابه عند مَثُلَة أهلك بها أحداً نجّى أحداً من أولئك، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصبْهم من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقَم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر وبالظالم من الظالم، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو أن يجعلنا مداهنين للظالمين.

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم وأمِنَ الفسّاق في مدائنكم وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى مَنْ فعله، ولا يرضى المداهنة فيه، كان لا يُظهِر مثلَه علانيةً قوم يرجون لله وقاراً، ويخافون منه غيَرا، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على

أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر، وإنما سبيل الله طاعته.

ولقد بلغني أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال: فلان حسن الخلق قليل التكلُّف، مقبل على نفسه، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقًا، بل أولئك أسوأكم أخلاقًا، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها، إذ رضي لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[1].

ففي هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التي لا تتخلف، وهي أن أيًّ مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم فلابد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث: أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يصيبَهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار، أو يصيبَهم الله بالخوف والذل وأنواع النِّقم والمصائب.

ويبين عمر في هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصي المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضي الله عنهم، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصي.

ويذكر أن من الجهاد في سبيل الله تعالى الغلظة على منتهكي محارم الله والإنكارَ عليهم بالأيدي والألسن وإن كانوا من أقرب الأقارب، وهذا التوسع في معنى الجهاد له أدلته الشرعية، مثل قول الله جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩] وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة في معاملتهم، ومثل ما جاء في قول رسول الله ﷺ «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[2].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٠.

(٢) ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح من رواية أبي داود والنسائي والدارمي، وصححه الألباني -٢/ ٣٥٥ رقم ٣٨٢١-.

ويصحح عمر في هـذا الكتاب مفهومًا خاطئًـا عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه، حيث يبين أن هذا سيئ الخلق، حيث تعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقـة والرحمة، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصـلاحهم، ويَرُدُّ على قولهم بأنه قليل التكلف مقـبل على نفسه، بأنه لم يقـبل على نفسه بمحـاولة إنقاذها من النار ورفع درجتـها في الجنـة، بل أقبل على هلكتـها، حـيث إن السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مـرتكبها وقد توردہ إلى النار، وإذا كان في مفهوم الناس أن السـاكـت قليل التكلف فإنه قـد تكلف أمرًا عظيـمًا حـيث خالف أمر الله تـعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكانت كتب عـمر بن عبد العزيز كلهـا في إصلاح المجتمع كما جـاء في خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: ما كـان يقدم على أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كـتاب من عمر إلا فـيه رد مظلمة أو إحـياء سنة أو إطفاء بدعـة أو قَسْم أو تقدير عطاء أو خير، حتى خرج من الدنيا[١].

وهذا يبين لنا ضخامة المجهود الإصلاحي الذي قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

ويبين رحمه الله شدة اهتمامه بالإصلاح وحماسه له بقوله: فلو كان كل بدعة يميتها الله تعـالى على يدي، وكل سنة ينعشها الله سبحـانه على يدي، ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيرا[٢].

إباحته المراعي العامة للأمة:

أخرج ابن سعـد من خبر إسمـاعيل بن أبي حكيم: أن عمر بن عـبد العزيز لما استخلف أباح الأحماء كلها إلا النقيع[٣].

وأخرج أيضًا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب: فما حُمي من الأرض أن لا يُمنع أحد مواقع القطر، فأبح الأحماء ثم أبحها[٤].

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٢.
(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٤٣.
(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٥.
(٤) المرجع السابق ٥/ ٣٨١.

والحمى هو جزء من أرض المراعي يُحَمى لشخص أو قبيلة أو أي جهة أخرى، وقد كان الحمى في عهد الخلفاء الراشدين لمصالح الأمة العامة كمواشي الصدقة، ثم توسع الناس بعد ذلك في الحمى فصار بعض الأحماء لمصالح خاصة، فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز أبطل الأحماء الخاصة ولم يبق إلا ما فيه مصلحة للأمة عامة، وهذا من إصلاحاته الكبيرة حيث أتاح الفرصة لأفراد الأمة للاستفادة من المراعي العامة.

توجيهه إلى الإمساك عما جرى بين الصحابة:

من إصلاحاته الفكرية أنه نهى الناس عن الخوض في الخلاف الذي جرى بين الصحابة رضي الله عنهم، كما أخرج ذلك محمد بن سعد من خبر محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز فقال: أمرٌ أخرج الله أيديكم منه ما تُعمِلون ألستك فيه؟![1].

وهذا الذي وجَّه إليه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز هو الذي اعتمده أهل السنة والجماعة، من عدم الخوض فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من القتال، والكف عن الحديث في ذلك.

إبطاله سب عليّ على المنابر:

أخرج ابن سعد من خبر لوط بن يحيى الغامدي قال: كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون عليّاً رحمه الله، فلما ولي عمر أمسك عن ذلك، فقال كُثَيِّر عزة الخزاعي:

وَلِيتَ فلم تشتم عليّا ولم تُخف	بريًا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمتَ بالحق المبين وإنما	تَبَيَّنُ آيات الهدى بالتكلُّم
فصدَّقتَ معروف الذي قلت بالذي	فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم[2]

وذكر المؤرخ ابن الأثير أن عمر بن عبد العزيز قال: وكان أبي إذا خطب فنال من عليّ رضي الله عنه تلجلج فقلت: يا أبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٩٣-٣٩٤.

على ذكر علي عرفت منك تقصيراً، قال: أوفطنت لذلك؟ قلت: نعم، فقال: يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده.

قال: فلما ولي الخلافة لم يكن عنده من الرغبة في الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم من أجله فترك ذلك، وكتب بتركه وقرأ عوضه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] فحل هذا الفعل عند الناس محلا حسنا وأكثروا مدحه بسببه(١).

اهتمامه بإلغاء الضرائب والجزية عمن أسلم:

ومن أهم إصلاحات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، إلغاء الضرائب وإلغاء الجزية عمن دخل في الإسلام، وقد كان الولاة قبله فرضوا ضرائب على المسلمين في أراضيهم وخيولهم وخدمهم ليزيد دخل بيت المال، كما فرضوا الجزية على من أسلم بحجة أن الناس يدخلون في الإسلام فراراً من دفع الجزية، فوضع ذلك كله عمر بن عبد العزيز، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر محمد بن قيس قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض، ووضع الجزية عن كل مسلم(٢).

وكذلك ما أخرجه من خبر ميمون بن مهران قال: دخل عامل لعمر بن عبد العزيز فقال: كم جمعتَ من الصدقة؟ فقال: كذا وكذا، قال: فكم جمع الذي كان قبلك؟ قال: كذا وكذا، فسمّى شيئًا أكثر من ذلك، فقال عمر: من أين ذاك؟ قال: يا أمير المؤمنين إنه كان يُؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدّان خمسة دراهم، وإنك طرحت ذلك كله، قال: لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه(٣).

وأخرج محمد بن سعد من خبر يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه أن حيان بن شريح عامل عمر بن عبد العزيز على مصر كتبَ إليه: إنّ أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية. فكتب إليه عمر: أما بعد فإن الله بعث محمداً داعياً

(١) الكامل ٤/ ١٥٤.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٥.
(٣) المرجع السابق ٥/ ٣٧٦.

ولم يبعثه جابيًا، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطْو كتابك وأقبل[1].

وأخرج أيضًا من خبر عبد الرحمن بن حسن عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب وهو خليفة إلى عامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره أن يدعو أهل الجزية إلى الإسلام فإن أسلموا قبل إسلامهم ووضع الجزية عنهم، وكان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فقال له رجل من أشراف أهل خراسان: إنّه والله ما يدعوهم إلى الإسلام إلا أن توضع عنهم الجزية، فامتحنْهم بالختان. فقال: أنا أردهم عن الإسلام بالختان؟ هم لو قد أسلموا فحسن إسلامهم كانوا إلى الطهرة أسرع. فأسلم على يده نحو من أربعة آلاف[2].

وهكذا كانت نتيجة وضع الجزية عمن أسلم حيث دخل في الإسلام أربعة آلاف في قطر واحد.

وفي هذا الخبر موقف يذكر للبطل المجاهد الأمير الجراح بن عبد الله الحكمي حيث رفض مشورة ذلك الرجل الخراساني بامتحان من دخل في الإسلام بالختان لأن ذلك يعتبر تنفيراً لهم عن الإسلام.

ومما يبين كثرة دخول الكفار في الإسلام بعد إلغاء ضريبة الجزية عمن أسلم، ما ذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر جابر بن حنظلة الضَّبِّي قال: كتب عدي بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن الناس قد كثروا في الإسلام، وخفت أن يقل الخراج، فكتب إليه عمر: فهمت كتابك، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حرَّاثين نأكل من كسب أيدينا[3].

وهذا موقف كبير من مواقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الدعوة إلى الإسلام ورفع الظلم عن أهل الذمة.

ومما يبين دقة عمر بن عبد العزيز في تطبيق هذا الأمر، ما أخرجه ابن سعد من خبر سويد بن حصين: أن عمر بن عبد العزيز كتب: إنْ أسلم والجزية في كفَّةٍ الميزان فلا تؤخذ منه.

---

(١) المرجع السابق ٥/ ٣٨٤.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٦.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٨١.

وكذلك ما أخرجه من خبر عمرو بن المهاجر عن عمر بن عبد العزيز في الذمي يسلم قبل السنة بيوم قال: لا تؤخذ منه الجزية[1].

ولم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز في دخول الكفار في الإسلام على وضع الجزية عـمن أسلم، بل تجاوز ذلك إلـى دفع مبلغ من المال لبـعض زعماء الـكفار ليتألفهم على الإسلام، ومن ذلك ما ذكره ابـن سعد من خبر عيسى بن أبي عطاء رجل من أهل الشام كـان على ديوان أهل المدينة عن عمـر بن عبـد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام.

وكذلك مـا أخرجه من خبـر ابن أبي سبرة عن رجل أخـبره عن عمر بن عـبد العزيز أنه أعطى بِطْرِيقًا ألف دينار استألفه على الإسلام[2].

إحياؤه لسنة العطاء:

لقد فـرض أميـر المؤمنين العطاء السنوي لكل مولود في الإسـلام كمـا جاء في أخبار، منها ما أخـرجه ابن سعد من خبر سعيد بن مـسلم بن بانك قال: سمعت عـمر بن عـبـد العزيز يـقول وهو خليـفـة: إنه لا يحل لكم أن تأخـذوا لموتاكم فارفعوهم إلينا، واكتبوا لنا كل منفوس[3] نفرض له[4].

وأخرج عن محمد بن عمر الواقدي قال: حدثني أبي قال: ذهَبت بي حاضنتي إلى أبي بكر بن حـزم فوضع في يدي ديناراً وأنا منفوس، وولـدت سنة مائة، ثم كان قابل فأعطينا ديناراً آخر فكان دينارين، قال: وبه[5] سُمِّيت[6].

كما أخرج من خبر الهيثم بن واقـد قال: وُلدت سنة سبع وتسعين، فاستُخلِف عمر وأنا ابن ثلاث سنين فأصبت من قسمه ثلاثة دنانير[7].

حتى أهل السجون كان يصل إليهم عطاؤهم، كما أخرج ابن سعد من خبر أبي بكر بن حزم قال: كنا نُخرج ديوان أهل السجون فـيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٥٦.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٥٠.
(٣) أي مولود في حال نفاس أمه.
(٤) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٦.
(٥) أي بعمر بن عبد العزيز.
(٦) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٦.
(٧) المرجع السابق ٥/ ٣٤٧.

عمر بن عبد العزيز، وكتب إليّ: من كان غائبًا قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة فاعزل عطاءه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكّل عندك بوكالة ببينة على حياته فادفعه إلى وكيله[1].

وبهذا أحيى عمر بن عبد العزيز سنّة العطاء الإسلامي التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضي الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه الإسلامية رحمه الله تعالى.

إغناؤه المحتاجين عن المسألة:

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر الملاء من خبر يحيى بن سعد الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قدم عليه بعض أهل المدينة فجعل يسائله عن أهل المدينة فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه يا أمير المؤمنين. قال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله. قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخَبَط للمسافرين[2]، فالتمس ذلك منهم بعدُ فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز[3].

وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح ما يصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات من المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات لم يكن يصل إليها من قبل فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدِرُّ عليهم مبالغ زهيدة.

اهتمامه بدفع المهور من بيت المال:

كما اهتم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٨/٥.

(٢) الخبط نوع من ورق الشجر تأكله الإبل.

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٥١.

أبي العلاء بَيَّاع المشاجب قال: قُرِئَ علينا كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله(١).

وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية، وقد يكون المهر عائقًا لبعض الفقراء دون الزواج، خصوصًا في حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب.

جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع:

إضافة إلى ما ذكر في هذا المجال من التسوية بين أفراد الأمة في العطاء، فإنه سوى بينهم في أحقية الجلوس في المساجد، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر يونس بن أبي شبيب قال: شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشراف الناس حتى حفُّوا بالمنبر وبينهم وبين الناس فرجة، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس: أن تقدموا، فتقدموا حتى اختلطوا بهم(٢).

لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه، على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك، وسرى ذلك في الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف، وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلاً للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم «الأشراف» وكان أكثر هؤلاء من بني أمية، ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى في المساجد التي من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام لما في ذلك من زيادة الثواب، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجَلِّ اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع وذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية وأن يزيل

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٧.

كبرياءهم، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة وأن يقوي معنوياتهم ويزيل شعورهم بالضعف، فكان من جهوده في ذلك المساواة بينهم في العطاء، ولا شك أن المال له أهمية كبرى في الرفع من شأن الناس وخفضهم.

وفي هذا الخبر تبين لنا اهتمامه في هذا المجال، بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخاصة ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة التي خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم.

تجرده من العصبية وإكرامه أهل البيت:

مما خالف فيه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من سبقه من ولاة بني أمية تجرده من العصبية لعشيرته، ومن الأخبار في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال: سمعت فاطمة بنت علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ذكرت عمر بن عبد العزيز فأكثرت الترحم عليه، وقالت: دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ فأخرج عني كل خصي وحرسي، حتى لم يبق في البيت غيري وغيره، ثم قال: يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إليّ منكم، ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي[1].

وهذا دليل على قوة إيمانه وتجرده من العصبية للعشيرة، حيث فضل قرابة رسول الله ﷺ على قرابته، فإن ذلك يعتبر من إكرام النبي ﷺ في أهل بيته.

وذكر محمد بن سعد في عدة أخبار أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر والي المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن يقسم بين بني هاشم بالسوية عشرة آلاف دينار، وذلك من حقهم في خمس ما أفاء الله تعالى يوم خيبر، فشكروه في ذلك، وكان فيمن كتب إليه بالشكر على ذلك فاطمة بنت الحسين، رضي الله عنه، وقد ذكر ابن سعد كتابها في ذلك من رواية يحيى بن أبي يعلى قال: لما قدم المال على أبي بكر بن حزم فقسمه أصاب كلّ إنسان خمسين ديناراً. قال فدعتني فاطمة بنت حسين وقالت: اكتب، فكتبتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت حسين، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما ولاه

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٧-٣٨٨.

وعصم له دينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالاً من الكتيبة[1] ويتحرى بذلك ما كان يصنع من كان قبله من الأئمة الراشدين المهديين، فقد بلغنا ذلك وقسم فينا، فوصل الله أمير المؤمنين وجزاه من والٍ خير ما جزى أحدًا من الولاة، فقد كانت أصابتنا جَفْوة واحتجنا إلى أن يُعمل فيناً بالحقّ، فأقْسم لك بالله يا أمير المؤمنين لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ من كان لا خادم له واكتسى من كان عاريًا واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق. وبعثْ إليه رسولاً، قال: فأخبرني الرسول، قال: فقدمتُ عليه فقرأ كتابها وإنّه ليحمد الله ويشكره وأمر لي بعشرة دنانير، وبعث إلى فاطمة بخمسمائة دينار وقال: استعيني بها على ما يَعْروك. وكتب إليها بكتاب يذكر فضلها وفضل أهل بيتها ويذكر ما أوجب الله لهم من الحقّ. قال: فقدمت عليها بذلك المال.

قال عبد الملك بن المُغيرة: فاجتمع نفر من بني هاشم فكتبوا كتابًا وبعثوا به مع رسول إلى عمر بن عبد العزيز يتشكّرون له ما فعله بهم من صلة أرحامهم وأنهم لم يزالوا مجفيين منذ كان معاوية. فكتب عمر بن عبد العزيز: قد كان رأيي قبل اليوم هذا ولقد كلمت فيه الوليد بن عبد الملك وسليمان فأبيا عليّ، فلما وليتُ هذا الأمر تحريتُ به الذي أظنه أوفق إن شاء الله[2].

اهتمامه بالإصلاح بين الناس:

ومن جهود أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في الإصلاح، ما ذكره ابن عبد الحكم قال: وجاء رجل من أهل المشرق هو وابن أخ له، فاختصما عند عمر بن عبد العزيز، قال: بينما الشيخ يريد الصلة والصلح إذ غضب فدعته نفسه إلى القطيعة، فنظر إليه عمر فقال: ما رأيت أحلى منك ولا أمَرّ، ولا أبعد ولا أقرب، بينما أنت تريد الصلة والصلح دعتك نفسك إلى القطيعة والظلم -وله شاربان قد غطّيا فاه -فقال: يامينا- لحجّام له-: أخرِج هذا الشيخ من الصف ثم خذ لي من شاربه ثم ائتني به، ففعل، فقال عمر: هذا أطيب وأنظف مع الفطرة، هلم إلى الصلح أيها الشيخ أنت وابن أخيك، قالا: نعم، فأصلح ذات بينهما، فرفع عمر يديه إلى السماء وقال: الحمد لله[3].

---

(١) الكتيبة جزء من خيبر فيه بساتين.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٩١.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٢١.

فهـذا مثل من أمثلة نجـاح أمير المؤمنين عمـر بن عبد العـزيز في الإصلاح بين الناس، والإصـلاح بين الناس باب مهم من أبواب الدعـوة وفعـل الخيـر، وأقدر الناس عليه من خولهم الله تعالى مسـئولية على المسلمين، لما لهم من حق الطاعة، فإذا تم الإصلاح علـى أيديهم فهي نعمة عظيـمة تستحق الشكر والحـمد، ولذلك حمد عمر الله تعالى لما وفقه من الإصلاح بين الرجلين.

وفي اهتمـام عمر بالتخـفيف من شارب ذلك الرجل، دليل على حـرصه على تطبيق السنة رحمه الله تعالى.

نماذج من مواعظه وحكَمِه:

من ذلك ما ذكـره أبو محمـد عبد الله بن عبـد الحكم رحمه الله تعـالى قال: وكتب عـمر بن عبد العـزيز إلى القرظي[1]: أما بعـد فقد بلغني كـتابك تعظني، وتذكر مـا هو لي حظ وعليك حق، وقد أصبت بذلك أفـضل الأجر، إن الموعظة كالصـدقة، بل هي أعظـم أجرًا وأبقى نفعًـا، وأحسن ذخـرًا، وأوجب على المرء المؤمن حقًا، لكلمة يعظ بها الرجل المؤمن أخاه ليـزداد بها في هدًى رغبةً خيرٌ من مال يتصدق به عليه وإن كان به إليـه حاجة، ولما يدرك أخوك بموعظتك من الهدى خير مما ينال بصدقتك من الدنيا، ولأن ينجو رجل بموعظتك من هلكة خير من أن ينجو بصدقتك من فقر، فعظ من تعظه لقضاء حق عليك، واستعمل كذلك نفسك حين تعظ، وكن كالطبـيب المجرب العالم الذي قـد علم أنه إذا وضع الدواء حيث لا ينبغي أعنتـه وأعنت نفسه، وإذا أمسكه من حيث ينـبغي جهل وظلم، وإذا أراد أن يداوي مجنونًا لم يداوه وهو مـرسل حتى يستوثق منه ويوثق له، خـشية أن لا يبلغ منه من الخير ما يتقي منه من الشر، وكان طبُّه وتجربته مفتاح علمه.

واعلم أنه لم يُجعل المـفتاح على البـاب لكيما يغلق فـلا يفتح، أو ليفـتح فلا يغلق، ولكن ليغلق في حينه ويفتح في حينه[2].

---

(١) هو أبو حمزة محمد بن كعب القرظي، من علماء التابعين.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٣٢-١٣٣.

في هذا الكتاب توجيه جيد من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز نحو القيمة الكبرى للوعظ والتذكير، حيث بين أن إهداء الموعظة للأخ المسلم أفضل من إهداء المال إليه، ذلك لأن دعوة المسلم إلى الاستقامة على الدين تعني منحه خيري الدنيا والآخرة، فأما الدنيا فإن الاستقامة تعني صلاح أمور الحياة والحماية من الأضرار التي تنتج عن السير على هدى العقل المجرد، وأما في الآخرة فإن الاستقامة في الدنيا تعني رفعة الدرجات في الجنة والسلامة من عذاب النار، فهل هناك هدية تقدم للمسلم من أخيه أعظم من موعظة هادية صادرة من القلب؟!

كما أن في هذا الكتاب توجيهًا نحو المنهج السديد في الدعوة، حيث بين عمر ابن عبد العزيز أن الواعظ كالطبيب، والموعظة كالدواء، فلابد للطبيب الناجح أن يكون عالمًا بفنه حاذقًا بتطبيق ذلك العلم، وأن يحسن اختيار الدواء وطريقة تناوله وما يحذر منه أثناء ذلك، فكذلك الواعظ لابد أن يكون متزودًا بالعلم النافع وأن يكون مخلصًا في عمله حكيمًا في عرض مواعظه.

اهتمامه بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن ناسًا يلتمسون الدنيا بعمل الآخرة وإن مصيرهم ومرجعهم إلى الله، وإن ناسًا من هؤلاء القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم[1] فمروهم فليدْعوا للمؤمنين عامة وليلغوا ما سوى ذلك.

قال، وعن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير الجزيرة: أما بعد فإن ناسًا من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة الدنيا وإنما مصيرهم ومرجعهم إلى الله بعد الموت، وقد بلغني أن ناسًا من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عِدْلَ ما يصلون على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمر القصاص فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدَعوا ما سوى ذلك. والسلام.

قال جعفر: أحب أن لا يذكروا مع النبي ﷺ[2].

---

(١) يعني يدعون لهم.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٠٣.

هذا الخبر يصحح خطأ حدث بعد عصر الخلفاء الراشدين، حيث دأب بعض الخطباء على ذكر الأمراء في خطب الجمعة، إما بالثناء عليهم أو بالدعاء لهم، وذلك يتضمن تسوية هؤلاء الأمراء برسول الله ﷺ الذي شرعت الصلاة عليه في الخطب، كما أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل التعظيم لأولئك الولاة مما قد يترتب عليه وقوع في الشرك، إضافة إلى أنه قد يصدر من بعضهم على سبيل النفاق والتقرب للولاة للحصول على شرف الدنيا كما جاء في هذا الخبر، فلذلك أصدر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمره بمنع الخطباء من ذلك حماية لتوحيد الله تعالى وحق النبي ﷺ.

كتابه لبعض عماله في التزهيد في الدنيا:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة. أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عماله، أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته، فإن بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته. وبها رافقوا أنبياءهم، وبها نضرت وجوههم، وبها نظروا إلى خالقهم، وهي عصمة في الدنيا من الفتن، والمخرج من كُرب يوم القيامة، ولم يقبل ممن بقي إلا بمثل ما رضي عمن مضى ولمن بقي عبرة فيما مضى، وسنة الله واحدة، فبادر بنفسك قبل أن تؤخذ بكظمك، ويخلص إليك كما خلص إلى من كان قبلك، فقد رأيت الناس كيف يموتون وكيف يتفرقون، ورأيت الموت كيف يعجل التائب توبته وذا الأمل أمله، وذا السلطان سلطانه، وكفى بالموت موعظة بالغة، وشاغلا عن الدنيا، ومرغبًا في الآخرة، فنعوذ بالله من شر الموت وما بعده، ونسأل الله خيره وخير ما بعده. ولا تطلبن شيئًا من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك، فيزرى بدينك، ويمقتك عليه ربك، واعلم أن القدر سيجري إليك برزقك ويوفيك أملك من دنياك بغير مزيد فيه بحول منك ولا قوة، ولا منقوصًا منه بضعف. إن ابتلاك الله بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك، واعتبر بما قسم الله لك من الإسلام ما زوى منك من نعمة الدنيا، فإن في الإسلام خلفًا من الذهب والفضة من الدنيا الفانية، اعلم أنه لن يضر عبدًا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر أو بلاء، وأنه لن ينفع عبدًا صار إلى سخط

الله وإلى النار ما أصاب من الدنيا من نعمة أو رخاء، ما يجد أهل الجنة مس مكروه أصابهم في دنياهم، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم، كل شيء من ذلك كأن لم يكن. تشيعون غاديًا أو رائحًا إلى الله قد قضى نحبه، وانقضى أجله، وتغيبونه في صدع من الأرض، ثم تدعونه غير متوسد ولا متمهد، فارق الأحبة، وخلع الأسلاب، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهنًا بعمله، فقيرًا إلى ما قدم غنيًا عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء موافاته، وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم عندي، وأستغفر الله وأتوب إليه[1].

وصيته للقضاة:

من وصاياه في ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضيًا حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي، لا يبالي ملامة الناس[2].

فالعفة تُحصِّن القاضي من أخذ الرشوة بأي شكل من أشكالها وتحول بينه وبين النفعيين الذين يريدون أن يُسخِّروا القاضي لمنافعهم الدنيوية.

والحلم يمنع القاضي من التفوه بما لا يليق من الكلام، ويمنحه الفرصة الكافية لاستيعاب ما يقوله الخصوم.

والعلم بما كان قبله يمنحه الخبرة القضائية، حيث يستفيد من دراسة أحكام القضاة الذين سبقوه، وهذه أبلغ دراسة يستفيدها القاضي لأنها دراسة ميدانية.

واستشارة ذوي الرأي مهمة جدًا في التوصل إلى أحكام مدروسة من عدة عقول، فالذي يستشير أهل الرأي يملك عقولاً كثيرة بينما الذي لا يستشير لا يملك إلا رأيا واحدًا.

أما عدم المبالاة بملامة الناس فهو الجُنَّة الحصينة التي تحمي صاحبها من التأثر بأقوال المخذِّلين والمعوِّقين الذين يَنْفرون من الإصلاح إذا خالف هواهم وهوى أصحاب النفوذ من وجهاء الناس.

---

(١) الحلية ٥/٢٧٨-٢٧٩.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٣٦٩-٣٧٠.

ولم يذكر عمر بن عبد العزيز العلم بالشريعة لأنه أمر معلوم حيث لا يصل القاضي إلى منصب القضاء إلا إذا كان من العلماء.

حثه على التقوى:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر ميسرة الحضرمي: أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير(١).

فى هذا الخبر بيان الحقيقة التقوى، فالتقوى هي اتقاء سخط الله تعالى وعذابه، وإنما يكون ذلك بفعل جميع الواجبات التي فرضها الله سبحانه، لأن تركها يترتب عليه العذاب، واجتناب جميع المحرمات التي حرمها لأن فعلها يترتب عليه العذاب، أما النوافل فإنها يترتب الثواب على فعلها ولا يترتب العذاب على تركها، فلو أن إنسانًا صام أفضل الصيام وهو صيام يوم بعد يوم وقام أكثر الليل ثم ترك واجبًا أو فعل محرمًا لم يكن من المتقين في الظاهر، وإن كان قد يغفر الله له السيئات الصغيرة بالحسنات، لكن أمر المغفرة علمه عند الله تعالى، وفي هذا الخبر تحذير للذين يهتمون بالنوافل ويتساهلون ببعض الواجبات أو المحرمات.

كتابه إلى أهل الموسم بالبراءة من الظلم:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر جعونة بن الحارث قال: كتب عمر ابن عبد العزيز إلى أهل الموسم أما بعد: فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ويوم الحج الأكبر أني بريء من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته، إلا أن يكون وهمًا مني، أو أمرًا خفي علي لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عني مغفورًا لي إذا عُلم مني الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا مُعوَّل كل مظلوم، ألا وأى عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٣٠.

دُولةً بين أغنيائكم، ولا أثَرةً على فقرائكم في شيء من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد في أمر يُصلح الله به خاصًا أو عامًا من هذا الدين فله ما بين مائتي دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر ما نوى من الحِسبة، وتجشم من المشقة، رحم الله امرءًا لم يتعاظمه سفر يحيي الله به حقًا لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أمورًا من الحق أحياها الله لكم، وأمورًا من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم(١).

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهدًا في رد المظالم التي عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفودًا من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيبًا على أمير بلده، يسعى في تثبيته إذا استقام وفي تقويمه إذا انحرف.

وإذا كان المتقون في كل بلد مسئولين عن سير الحكم فيه فلن يستطيع أي حاكم -وإن ضعف إيمانه- أن يحكم بهواه ولا أن يحكم بأهواء النفعيين الذين لا يهمهم إلا مصالحهم الخاصة.

ثم يبين أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن المال في عهده لن يكون دولة بين الأغنياء ولا مستأثرا به عن الفقراء لأن الفيء يقسم على عامة المسلمين بالتساوي.

ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يقعد به التفكير في تأمين تلك النفقة.

ثم يختم كتابه بشكر المنعم جلا وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى، بحيث يتلاشى حظ النفس، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعونته.

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢-٢٩٣.

من خطبه في الزهد:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر الحسين بن محمد الخزاعي عن رجل من ولد عثمان أن عمر بن عبد العزيز قال في بعض خطبه: إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطُولنّ عليكم الأمد فتقسى قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بُسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه، ولربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة، فأما من لا يداوي كَلْمًا[(١)] إلا أصابه جرح في ناحية أخرى[(٢)] أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر غيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين منصوبة، ولقد عنيتم بأمر لو عُنِيَتْ به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما![(٣)].

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الله بن محمد بن سعد الأنصاري: أن عمر بن عبد العزيز صعد المنبر واجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق والمكذب به هالك، ثم نزل[(٤)].

موعظة له في التوكل والعفة:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إسماعيل بن إبراهيم بن أبي حبيبة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ من إخوانه في الله عز وجل، فكان في كتابه: لا تطلبن شيئًا من عرض الدنيا بقول ولا فعل تخاف أن يضر بآخرتك ويزري بدينك

---

(١) الكلم بالفتح الجراحة والجمع كلوم.

(٢) يعني فكيف يفرح؟

(٣) حلية الأولياء/ ٢٩١-٢٩٢.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٨٣-١٨٤.

ويمقتك عليه ربك، واعلم أن القدر سيجري إليك برزقك ويوفيك أكلك من دنياك غير متزيد فيه بحول منك ولا قوة ولا منتقص منه بضعف، إن ابتلاك الله عز وجل بفقر فتعفف في فقرك وأخبت لقضاء ربك، واغتفر بما قسم الله لك من الإسلام ما زوى عنك من نعمة دنياك، فإن في الإسلام خلفًا من الذهب والفضة والدنيا الفانية، واعلم أنه لا يضر عبدًا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر وبلاء، وأنه لن ينفع عبدًا صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصابه من نعمة أو رخاء، ما يجد أهل الجنة من مكروه أصابهم في دنياهم، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم، كأن شيئًا من ذلك لم يكن[١].

خطبة له وجيزة بليغة:

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد من خبر ابن العيزار قال: خطبنا عمر بن عبد العزيز بالشام على منبر من طين فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ثم تكلم بثلاث كلمات فقال: أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكفَوا دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب مُعْرَق له في الموت[٢]، والسلام عليكم[٣].

فهذه الخطبة الموجزة تشتمل على ثلاث مواعظ: الأولى صلاح العمل الظاهر، فالأعمال التي يمارسها الإنسان في حياته هي الشيء الذي يعلنه ويراه الناس، وما يُكِنُّه قلبه من النيات والمقاصد هو الشيء الذي يُسِرُّه، فإذا أصلح الإنسان قلبه وطهره من النوايا السيئة صلحت أعماله الظاهرة، فالجنايات والأعمال العدوانية مثلا هي نتيجة لما يكنه القلب من الغل والحسد والبغضاء، والتنافس على مظاهر الحياة من لباس وفراش ومراكب ومساكن هو نتيجة لما يكنه القلب من تعظيم الدنيا وتضخيمها، والاستقامة على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته هما نتيجة لما يكنه القلب من حبه وتعظيمه والخوف منه، وكذلك كل الأعمال الظاهرة فإنها مبنية على سرائر القلوب.

---

(١) سرة عمر بن عبد العزيز/ ١٨٢.

(٢) يعن إذا كان آباؤه جميعًا إلى آدم قد ماتوا فإنه حتمًا سيموت.

(٣) الزهد للإمام أحمد/ ٢٩٦، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٨٦.

والثانية: العمل للآخرة على أنها هي المطلب الأعلى والمقصد الأسمى، فإذا شغل الإنسان فكره بالعمل للآخرة سخر الله تعالى له من الدنيا ما يغنيه ويكفيه من غير إعمال فكر، وفتح له من أبواب الرزق ما لا يخطر له على بال.

والثالثة: التذكير بالموت بأسلوب مؤثر، فالإنسان إذا تذكر أن جميع آبائه الذين يصلونه بآدم عليه الصلاة والسلام في النسب قد ماتوا فكيف يؤمل بالبقاء؟! ولماذا لا يحمله ذكر الموت على الاستقامة والعمل لما بعد الموت؟!

آخر خطبة خطبها:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر يعقوب بن عبد الرحمن عن أبيه قال: خطب عمر بن عبد العزيز هذه الخطبة وكانت آخر خطبة خطبها، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل بينكم، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أن لا يأمن غدًا إلا من حذرَ الله اليوم وخافه وباع نافدًا بباق، وقليلاً بكثير، وخوفًا بأمان؟ ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وستصير من بعدكم للباقين، وكذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين، ثم إنكم تشيِّعون كل يوم غاديًا ورائحًا، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في شق صدع، ثم تتركوه غير ممهد ولا موسد، فارق الأحباب، وباشر التراب، ووُجِّه للحساب، مرتهن بما عمل غني عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله وموافاته وحلول الموت بكم، أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي وأستغفر الله، وما منكم من أحد يُبلغنا حاجته لا يسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يُبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه واحدًا، أما والله لو أردت غير هذا من غضارة العيش لكان اللسان به ذلولا، وكنت بأسبابه عالمًا، ولكن سبق من الله كتاب ناطق، وسنة عادلة، دل فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته ثم رفع طرف ردائه فبكى وأبكى من حوله[1].

فهذه خطبة بليغة في التذكير بالموت والعمل للآخرة، ولقد كان -رحمه الله- نذيرًا للعالم في عصره، ذلكم العصر الذي غرق أكثر الناس فيه بالتوجه نحو

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٥ وانظر سيرة عمر لابن الجوزي/ ١٩٠.

مظاهر الحياة الدنيا واشتغلوا بذلك عن ذكر الموت وما بعده، فما زال يلح على الناس بالتذكير بمختلف الأساليب والمناسبات حتى أحيى الله به قلوبًا ميتة وذكَّر الله به قلوبًا غافلة، وحكم له بالصلاح ملوك العالم من غير المسلمين فضلاً عن المسلمين، ثم ما زالت سيرته الزكية بعد موته مادة غزيرة في الدعوة إلى الله تعالى وإصلاح المجتمعات الإسلامية.

فهمه لشمول العبادة:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن زيد بن جدعان قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب بخناصرة فسمعته يقول: ألا إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم[1].

وأخرج من خبر عبد العزيز بن أبي رواد قال: قال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة[2].

فهذا فهم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لشمول العبادة لكل أمور الدين، فإن إطلاق العبادات على أمور الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام والحج إطلاق اصطلاحي لتميزها عن أمور الدين الأخرى، ولا يعني ذلك عدم شمول العبادة لسائر أمور الدين، ومن أبرز الأدلة على شمول العبادة قول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإن العبادة في الآية تشمل جميع أمور الدين.

تعزيته البليغة لأهل صديقه:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر علي بن الحسين قال: كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأُخبر أنه قد مات، فجاء إلى أهله يعزيهم فصرخوا في وجهه فقال لهم عمر: إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم وإن الذي يرزقكم حي لا يموت، وإن صاحبكم هذا لم يسد شيئًا من حُفركم، إنما سد حفرة نفسه، وإن لكل امرئ منكم حفرة لابدَّ والله أن يسدها، إن الله تعالى لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، ولا امتلأت دار حَبْرة إلا امتلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٦.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٤.

تفرقـوا، حتى يكون الله هو الذى يرث الأرض ومن عليهـا، فمن كان منكم باكـيًا فليبك على نفسه، فإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم كلكم يصير إليه غدًا[(١)].

فهذا نموذج رائع في التعـزية، أكد فيه أمير المؤمنين عمر بن عـبد العزيز رحمه الله تعالى أن الرازق هو الله جل وعـلا وحده، فلا يجوز لأهل الميت أن يشـعروا بأنهم قد فـقدوا بفـقده مصـدر رزقهم وذكَّـرهم بأن ميِّتـهم قد سـار إلى مآل هم صائرون إليه، وإنما الفرق بينهم وبينه أنه قد سبقهم إلى ذلك المصير، فليشتغل كل إنسان بالتـفكير بالمصير الذي هو صـائر إليه عما قريب، وإن في ذلـك لشغلا عن الحزن على الفقيد، كما ذكَّرهم بأن الدنيا ليست دار سرور دائمًا فلا ينبغي للمسلم أن يتألم لما يصيبه فيها من مصائب، وإنما هي دار ابتلاء وعمل ونصب، فليس من خلق المسلم أن يكون هلوعًا جزوعًا عند مواجهة المصائب.

مثل من صبره ويقينه:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سهل بن الربيع بن سبرة حدثني أبي عن أبيه الربيع قـال: لما هلك عبد الملك بن عـمر بن عبـد العزيز وسهل بن عـبد العزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة، دخل الربيع بن سبرة عليه وقال: أعظم الله أجرك يا أمـير المؤمنين، فمـا رأيت أحدًا أصيب أعـظم من مصيـبتك في أيام متتابعة، والله ما رأيت مثل ابنك ابـنا، ولا مثل أخيك أخا، ولا مثل مولاك مولى قط، فطأطأ عمر رأسه، فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هيجت عليه، قال ثم رفع رأسه فقال: كيف قلت الآن يا ربيع؟ فـأعدت عليه ما قلت أولاً، قال: لا والذي قضى عـليه -أو قال عليـهم- بالموت، ما أحب أن شـيئًا مـن ذلك كان لم يكن.

وأخرج أيضًا من خـبر عثمان بن عـبد الحميد حـدثني أبي. قال: بلغنا أن ابنا لعمر بن عبد العزبز مات صـغيرًا، فدخل عليه الناس يعزونه وهو ساكت لا يتكلم طويلا حتى قال بعضهـم إن ذا لمن جزع، قال ثم تكلم فقال: الحمد لله دخل ملك الموت حجرتي فذهب ببعض، وكأنه ذهب بي[(٢)].

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣٢٩-٣٣٠، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٣٠.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣٣٠.

فهذا مثال على الرضى بقضاء الله وقدره والصبر على المصائب، فبالرغم من أن هؤلاء الثلاثة كانوا هم خاصته الذين كان يتقوى بهم ويستشيرهم، وبالرغم من تتابع المصيبة بفقدهم فإنه قد بدا جميل الصبر راسخ اليقين مؤمنًا بأن الأمور كلها بيد الله عز وجل وأن الخير فيما قضاه وقدره.

وفي الخبر الثاني نجده يحمد الله تعالى على أن ملك الموت دخل حجرته فذهب ببعضه لما مات ابنه فكأنه هو الذي ذُهِب به، وفي ذلك توطين للنفس على مواجهة الموت واشتغال بانتظاره والاستعداد لما بعده بالعمل عن الحزن على فقد أحد الأقارب وإن كان عزيزًا على النفس.

جوابه على من قال أبقاك الله

أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل من خبر طلحة بن يحيى قال: كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز فجاءه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين أبقاك الله ما كان البقاء خيرًا لك، فقال: أما ذاك فقد فُرِغَ منه ولكن قل: أحياك الله حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار(١).

فهذا جواب سديد، لأن الدعاء بالبقاء وطول العمر لا معنى له، حيث إن الإنسان يُكتب له أجله وهو في بطن أمه، وإنما ينبغي أن يُدْعَى للمسلم بالسعادة في الدنيا والآخرة.

من مواعظه البليغة:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر خالد بن دينار قال قال عمر لميمون ابن مهران: يا ميمون لا تدخل على هؤلاء الأمراء وإن قُلْتَ آمرهم بالمعروف، ولا تخلوَنَّ بامرأة وإن قُلْتَ أُقرئها القرآن، ولا تَصِلَنَّ عاقًا فإنه لن يصلك وقد قطع أباه(٢).

---

(١) الزهد للإمام أحمد/ ٢٩٧-٢٩٨، وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ٣٣٠، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٢٠٦.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٤٥.

فهذه ثلاث مواعظ في غاية الجودة:

فالأولى: النهي عن الدخول على الأمراء، والمحذور الذي خافه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من ذلك أن يتأثر من دخل عليهم بشيء من مظاهر الحياة التي يتغالى كثير منهم فيها، فيكون ذلك سببًا في فتنة من دخل عليهم، أو يقصر في إنكار المنكرات عليهم أو يوافقهم في بعض ذلك فيكون آثمًا، ولعل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى من واقع تجربته مع الأمراء قد رأى فيمن يدخلون عليهم خللا في دينهم.

وهذا الأمر لا يؤخذ على إطلاقه في جميع الأحوال، بل قد يكون الدخول على الأمراء واجبًا لإنكار المنكر فيما إذا كان ذلك متعينًا على فرد أو طائفة من المسلمين، وقد يكون مستحبًا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما إذا لم يكن متعينًا على الشخص، وقد يكون محرمًا فيما إذا تأكد الإنسان من ضرورة وقوعه في الإثم، وقد يكون مكروهًا فيما إذا احتمل الأمر ذلك، وقد يتردد الأمر بين الوجوب والتحريم، وذلك فيما إذا تعين عليه إنكار المنكر وعلم أنه سيقع في الإثم، أو يتردد الأمر بين الاستحباب والكراهة، وذلك فيما إذا لم يتعين عليه إنكار المنكر وخشي من الوقوع في الإثم، وفي كلتا الحالتين فالأمر يحتاج إلى اجتهاد العالم في ترجيح مصلحة الإسلام والمسلمين.

والثانية: النهي عن أن يخلو الرجل بالمرأة وهو من غير محارمها، وإن كان الدافع لذلك إقراءها القرآن، وهذا واضح في الشريعة ولا يجوز التساهل فيه لقول رسول الله ﷺ «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم» أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[(١)].

والثالثة: عدم وضع الثقة بمن عق والديه، لأنه قد خان الأمانة ولم يتخلق بخلق الوفاء لمن رعياه وخدماه وبذلا له مُهَجَهُما في الصغر وهو في أمس الحاجة إليهما، فإذا عقَّ الإنسان والديه أو أحدهما لم يكن أمينًا معهما ولا وفيًا لهما فأحرى به أن لا يكون أمينًا ولا وفيًا مع غيرهما.

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٥٢٣٣، النكاح (٩/ ٣٣٠) صحيح مسلم، رقم ١٣٤١، الحج (ص٩٧٨).

موعظته لمن سأله شيئًا من الدنيا:

قال ابن عبد الحكم: وكان رجل من قريش -وكانت الخلفاء لا ترده عن حاجة -فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله حاجته فقال عمر بن عبد العزيز: لا يجوز هذا، ورده عنها، فخرج مغضبًا فناداه عمر فظن أنه قد بدا له في قضاء حاجته فقال له: يا أبا خالد فرجع إليه فقال له: إذا رأيت شيئًا من الدنيا فأعجبك فاذكر الموت فإنه يقلّله في نفسك، وإذا كنت في شيء من أمر الدنيا قد غمَّك ونزل بك فاذكر الموت فإنه يسهِّله عليك، وهذا أفضل من الذي طلبت(١).

نماذج من أدبه وحكمته:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر المدايني قال: دخل حريث بن عثمان الدجني مع أبيه على عمر بن عبد العزيز فسأل الأب عن الابن ثم قال له: علمه الفقه الأكبر، قال: وما الفقه الأكبر؟ قال: القناعة وكف الأذى(٢).

والفقه الأكبر بمعنى الفهم الأكبر في الدين، ومن تأمل في هذين الأمرين اللذين اختارهما عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يجد أنهما من أمور الدين المهمة، فالذي يُرزق القناعة يتورع عن اكتساب المال من طريق المحرمات والشبهات، ويعف نفسه عن السؤال والتطلع إلى ما في أيدي الناس، ويسلم من أخلاق السوء كالحسد والغل والحقد، أما كف الأذى فهو أن يعصم الإنسان جميع جوارحه من الاعتداء على المسلمين، ومن أبرز ذلك حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وغير ذلك من فلتات اللسان، ويكفي في بيان أهمية كف الأذى عن المسلمين أن النبي ﷺ اعتبر من طبق ذلك هو المسلم حقًا كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٣).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/١٦٧-١٦٨.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/٢٠٥.

(٣) صحيح البخاري، رقم ١١، الإيمان (١/ ٥٤) صحيح مسلم، رقم ٤٠، الإيمان (٦٥).

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز فقال رجل لرجل: تحت إبطك، فقال عمر: وما على أحدكم أن يتكلم بأجمل ما يقدر عليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: لو قال: تحت يدك كان أجمل[1].

فهذا توجيه إلى حسن اختيار الألفاظ الذي تؤدي المقصود ولا يتقزز الناس من سماعها، فذلك من الأدب في الحديث.

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي هاشم القرشي قال: قال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك، فقال وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزلت العطية وكفيت المسألة، فأعجب به عبد الملك، فقال بعض أولاد عبد الملك هذا كلام تعلمه فأداه، فدخل على عبد الملك يومًا فقال: يا عمر كيف نفقتك؟ فقال الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين، قال فما هما؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فقال عبد الملك: من علمه هذا[2].

فهذا الخبر يدل على سرعة بديهة عمر بن عبد العزيز ومقدرته على اختيار الألفاظ الجزلة والمعاني العميقة، وسرعة الاستشهاد بالآيات القرآنية المناسبة، وقد كان عبد الملك بن مروان معجبًا بفكره وحكمته وأدبه.

وذكر الحافظ ابن الجوزى من خبر علي بن بكار قال قال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقتربوا منه فإنه يُلَقَّى الحكمة[3].

والمقصود بالحكمة وضع الشيء في موضعه من قول أو عمل، وهي تنتج عن التفكير السوِي الذي يأتي نتيجة التأمل الطويل العميق، وهذا التأمل لا يحصل غالبًا إلا بشيء من العزلة والجو الهادئ البعيد عن الضجيج والارتباطات الاجتماعية التي تشغل الفكر بالأمور الحالية، ولا تترك للفكر مجالا واسعًا للتأمل العميق.

وليس هذا الأمر على إطلاقه فربما يُلَقَّى الإنسان الحكمة مع كثرة الارتباطات الاجتماعية لكونه ذا مقدرة عالية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولكن عمر بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٠٧.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٢.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٨١.

عبد العزيز رحمه الله تعالى لاحظ بتجاربه أفرادًا من الناس يمتازون بالحكمة، ورأى أن أبرز صفاتهم كثرة الصمت وحب العزلة فعبر عن نتائج تجاربه التي رآها.

تأثره من شعر الزهد واستشهاده به:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر عبد الصمد بن عبد الأعلى قال: كان عمر بن عبد العزيز وجَّه عبد الأعلى بن أبي عمرة رسولا إلى طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام، فقال له عبد الأعلى: يا أمير المؤمنين ائذن لي في بعض ولدي يخرج معي -وكان أبا عشرة- فقال له: ومن يخرج معك من ولدك؟ فقال عبد الله. فقال إني رأيت عبد الله يمشي مشية مقتُّها، وبلغني أنه يقول الشعر. فقال عبد الأعلى: يا أمير المؤمنين أما مشيته فغريزة هي فيه، وأما الشعر فإنما هو نوَّاحة ينوح على نفسه، فقال مر عبد الله يأتيني العشية وأخرج معك غيره، فراح به إليه فدخل عليه فاستنشده، فأنشده:

تجهزي بجهاز تبلغين به	يا نفس قبل الردى، لم تخلقي عبثا
وسابقي بغتة الآجال وانكمشي	قبل اللزوم فلا منجا ولا غَوَثا
ولا تكدِّي لمن يبقى وتفتقري	إن الردى وارث الباقي وما ورثا
واخشَيْ حوادث صرف الدهر في مهل	واستيقظي لا تكوني كالذي بحثا
عن مدية كان فيها قطع مدَّته	فوافت الحرث موفورًا كما حُرثا
لا تأمني فجع دهر مترف خَتَلٍ	قد استوى عنده من طاب أو خبثا
يا رُبَّ ذي أمل فيه على وجل	أضحى به آمنا أمسى وقد حدثا
من كان حيث تصيب الشمس جبهته	أو الغبار يخاف الشَّين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته	فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثا
في قعر مُوحشة غبراء مقفرة	يطيل تحت الثرى في قعرها اللَّبثا

قال: فبكى عمر من شعره(١).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٩٥.

وأخرج الحافظ أبو نعيم من خبر وهيب بن الورد قال: كان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات:

يُرَى مستكينًا وهو لِلَّهو ماقت ... به عن حديث القوم ما هو شاغله
وأزعجه علم عن الجهل كله ... وما عالم شيئًا كمن هو جاهله
عبوس عن الجهال حين يراهمُ ... فليس له منهم خَدينٌ يهازله
تذكَّر ما يبقى من العيش آجلاً ... فأشغله عن عاجل العيش آجله

وأخرج أيضًا من خبر القاسم بن غزوان قال: كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات:

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم ... وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لخرَّقَتْ ... محاجر عينيك الدموع السواجم
بَلَ أصبحت في النوم الطويل وقد دنت ... إليك أمور مفضعات عظائم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردَى لك لازم
يغرك ما يبلَى وتُشغل بالهوى ... كما غُرَّ باللذات في النوم حالم
وتُشغَل فيما سوف تكره غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم[1]

إيمانه بالقضاء والقدر:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر قال: شهدت عمر يقول لحرسه: إن بي عنكم غنى، كفى بالقدر حاجزًا وبالأجل حارسا، ولا أطرحكم من مراتبكم ليجري لكم سنة بعدي، من أقام منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله[2].

وأخرج محمد بن سعد من خبر أرطاة بن المنذر قال: كان عند عمر بن عبد العزيز نفر يسألونه أن يتحفظ في طعامه ويسألونه أن يكون له حرس إذا صلّى لئلاً

---

(١) حلية الأولياء ٥/٣١٨-٣٢٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٩٣.

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/٢١٩-٢٢٠.

يثور ثائر فيقتله، ويسألونه أن يتنحّى عن الطاعون، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك. قال لهم عمر: فأين هم؟ فلمّا أكثروا عليه قال: اللهمّ إن كنتَ تعلم أني أخاف يومًا دون القيامة فلا تُؤَمِّنْ خوفي[1].

وقال أبو محمد ابن عبد الحكم: وكان عمر بن عبد العزيز يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضِّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. وكان عمر بن عبد العزيز يقول: ما برح فيَّ هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالي في شيء من الأمور هوى إلا في مواضع القضاء[2].

موقفه من الشعراء المداحين:

قال الحافظ ابن كثير: وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم، فساءهم ذلك، وهمّوا بالرجوع إلى بلادهم، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير:

يا أيها الرجلُ المرخي عمامتهُ ... هذا زمانكَ فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئًا، فمرَّ بهم عدي بن أرطأة فقال له جرير منشدًا:

يا أيها الراكبُ المرخي مطيتهُ ... هذا زمانك إني قدْ مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيهُ ... أني لدى الباب كالمصفودِ في قرن[3]

لا تنسَ حاجتنا لاقيتَ مغفرةً ... قد طال مكثي عنْ أهلي وعن وطني

فدخل عدي على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، فقال: ويحك يا عدي، مالي وللشعراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد كان يسمع الشعر ويجزي عليه، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحة فأعطاه حلة، فقال له عمر: أتروي منها شيئًا؟ قال: نعم فأنشده:

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٩٨، وانظر حلية الأولياء ٥/ ٢٩٢.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١١١. (٣) يعني كالموثق في قيد.

رأيتك يا خيرَ البرية كلها ... نشرتَ كتابًا جاءَ بالحق معلما
شرعتَ لنا دينَ الهدى بعدَ جورِنا ... عن الحقّ لما أصبح الحقُّ مظلما
ونوّرتَ بالبرهانِ أمرًا مدلّسًا[1] ... وأطفأت بالقرآن نارًا تضرّما
فمن مبلغ عنيْ النبي محمدًا ... وكلُّ امرئٍ يُجزَى بما كانَ قدّما
أقمتَ سبيلَ الحق بعد اعوجاجه ... وكان قديمًا ركنهُ قدْ تهدّما
تعالى علوّا فوقَ عرش إلهنا ... وكان مكانُ الله أعلى وأعظما

فقال عمر: من بالباب منهم؟ فقال: عمر بن أبي ربيعة، فقال أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتها فهبّتْ كعابا[2] ... طفلةٌ ما تبينُ رجعَ الكلام
ساعة ثم إنها بعدُ قالتْ ... ويلنا قد عجلتَ يا ابنَ الكرام
أعَلى غير موعدٍ جئتَ تسري ... تتخطى إلى رؤوس النيام
ما تجشّمت ما تريدُ من الأمر ... ولاحييتَ طارقًا لخصامِ

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم وستر على نفسه، لا يدخل والله أبدًا، فمن بالباب سواه؟ قال: همام بن غالب -يعني الفرزدق- فقال عمر: أوليس هو الذي يقول في شعره:

هما دلّياني من ثمانينَ قامةً ... كما انقض بازٍ أقتمُ الريش كاسره
فلما استوتْ رجلايَ بالأرض قالتا ... أحيٌّ [فيُرجَى] أم قتيلٌ نحاذرهْ

لا يطأ والله بساطي وهو كاذب، فمن سواه بالباب؟ قال: الأخطل، قال: أوليس هو الذى يقول:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طوعًا ... ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي
ولستُ بزاجرٍ عِيسًا بكورٍ[3] ... إلى بَطْحَاء مكّة للنجاحِ

(١) مدلسًا: مخادعًا- كاذبًا
(١) كعابًا: هي التي نهدَ ثديُها.
(٢) عيسًا: الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف.

ولستُ بزائرٍ بيتًا بعيدًا ... بمكةَ أبتغي فيهِ صَلاحي

ولستُ بقاتم كالعَير(١) أدعو ... قبيلَ الصبح حيٍّ على الفلاح

ولكني سأشربها شمولاً ... وأسجد عندَ منبلج الصباح

والله لا يدخل علي وهو كافر أبدًا(٢)، فهل بالباب سوى من ذكرت؟ قال: نَعَمْ الأحوص، قال: أليس هو الذي يقول:

اللهُ بيني وبينَ سيّدها ... يفرُّ منّى بها وأتبعهُ

فما هو دون من ذكرت، فمن ههنا غيره؟ قال جميل بن معمر، قال: الذي يقول:

ألا ليتَنا نحيا جميعًا وإن نَمُتْ ... يوافقُ في الموتى خريجي خريجها

فما أنا في طول الحياةِ براغبٍ ... إذا قيل [قد] سوّى عَلَيْها صَفِيحُها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحًا ويتوب، والله لا يدخل عليَّ أبدًا، فهل بالباب أحد سوى ذلك؟ قلت: جرير، قال أما إنه الذي يقول:

طرقتكِ صائدةَ القلوب وليس ذا ... حينَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

فإن كان لابد فأذن لجرير، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول:

إن الذي بعثَ النبيّ محمدًا ... جعل الخلافةَ للإمام العادل

وسعَ الخلائقَ عدلهُ ووفاؤهُ ... حتى ارعوى وأقامَ ميلَ المائلِ

إني لأرجو منكَ خيرًا عاجلاً ... والنفسُ مولعةٌ بحب العاجل

فقال له: ويحك يا جرير، اتق الله فيما تقول، ثم إن جريرًا استأذن عمر في الإنشاد فلم يأذن له ولم ينهه، فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بها، فقال له: ويحك يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقًا، فقال: إني مسكين وابن سبيل، قال: إنا ولينا

---

(١) العَيْر الحمار.

(٢) من المعروف أن الأخطل نصراني، ولو كان مسلمًا لأقيم عليه الحد بذلك.

هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة درهم، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد بقيت مائة، فأمر له بها، فخرج على الشعراء فقالوا: ما وراءك يا جرير؟ فقال: ما يسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشيطانِ لا تستفزُّه وقد كانَ شيطاني مِنَ الجنِ راقيا[1]

هذا خبر مهم في سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، وقد اخترته لأنه يمثل منهجًا جديدًا في ذلك العهد في معاملة الشعراء الذن يقصدون الأمراء بشعرهم فيمدحونهم طلبًا لرفدهم، وقد كان هذا الاتجاه مشهورًا في الجاهلية، ويدخل فيه الغلو والمبالغات والكذب.

ولما قامت دولة الإسلام في المدينة النبوية وفد على النبي ﷺ عدد قليل جدًا من الشعراء ومدحوه بقصائدهم ووصل بعضهم بشيء رمزي هو عبارة عن اللباس ونحوه تكريمًا لهم، وكان مدحهم بالدرجة الأولى إشادة بالإسلام، وقد كان إقرار النبي ﷺ إياهم لأهداف دعوية منها: أن الشعر كان له -آنذاك- دور كبير في رفع القبائل والدول وخفضها. فكان النبي ﷺ يقصد من إقرارهم وتكريمهم أن يرفعوا بشعرهم سمعة دولة الإسلام، وذلك نوع من الجهاد الذي كان يحارب به النبي ﷺ أعداءه، ولقد أدرك كفار مكة خطورة ذلك عليهم فمنعوا الأعشى، الشاعر المشهور، من الوفادة على النبي ﷺ ومدحه بقصيدته المشهورة كما تقدم.

ومنها أنه كان ﷺ يتألف بذلك أولئك الشعراء ليدخلوا في الإسلام، أو ليثبتوا عليه إن كانوا قد أسلموا.

ولقد انقطع هؤلاء الشعراء حينما عزت دولة الإسلام ولم يعد هناك حاجة لتألف البارزين من العرب إلى الإسلام، وقد تقدم لنا إنكار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد -رضي الله عنهما- حينما قصده الأشعث بن قيس.

ثم عاد الشعراء في عهد بني أمية إلى انتجاع الأمراء ومدحهم وبالغوا في ذلك كثيرًا، إلى أن تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقصدوه كما كانوا

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٧٣-٢٧٥.

يقصدون من قبله من الأمراء، فكان له هذا الموقف الإسلامي النبيل المذكور في هذا الخبر.

ولقد كان عمر بن عبد العزيز يدرك المقاصد الدعوية التي من أجلها أقر النبي ﷺ الشعراء الذين وفدوا عليه، ويعلم أن تلك المقاصد قد انتهت وخلَفها مقاصد دنيوية تُفسد بنيَة المجتمع، وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة، من الكذب والتَغرير والنفاق، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته.

ولقد دل هذا الخبر على أن عمر بن عبد العزيز كان ضليعًا في الأدب حافظًا للشعر، وإن سرعة إدراكه لسوءات أولئك الشعراء الواقفين على بابه وروايته شيئًا من أشعارهم التي انحطوا فيها دليل على غزارة حفظه وتمييزه بين جودة المقاصد الشعرية ورداءتها.

ولقد كان إذنه لأحد أولئك الشعراء بالدخول عليه وهو جرير اليربوعي التميمي من أجل أن يكون رسولاً إلى الشعراء لإعلامهم بالمنهج الإسلامي الذي يسير عليه عمر بن عبد العزيز، ولقد أدى هذه الرسالة حيث غادر أولئك الشعراء باب أمير المؤمنين ولم يعودوا، ولقد كان اختيار جرير لأنه كان أقرب أولئك الموجودين إلى التقوى.

ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين.

اهتمامه بالجهاد في سبيل الله تعالى:

الناظر إلى سيرة عمر بن عبد العزيز من حيث اهتمامه الكبير المتواصل في إصلاح دولة الإسلام من داخلها يظن أنه قد أوقف جهاد الأعداء لشغله أكثر وقته وفكره في الإصلاحات الداخلية، خصوصًا مع معرفة اهتمامه بإعادة جيش مسلمة من القسطنطينية، ولكننا نراه مع قيامه بتلك الإصلاحات الكبيرة قد اهتم بجهاد الأعداء ولكن بأسلوب يضمن أكبر قدر ممكن من سلامة جنود الإسلام، وقد رُويت في ذلك أخبار منها ما ذكر الإمام الطبري بقوله: وفي هذه السنة -يعني سنة

مائة- أغزى عمر بن عبد العزيـز الوليد بن هشام المعيطي وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص الصائفة(١).

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد من خبر خالد بن ربيعة عن أبيه قال: كتب عمر ابن عبد العـزيز: إذا دخلتَ الصائفة فلا تتركـن أحدًا يدخل في أثرهم إلا في قوة وجماعة من الرجال والخيل والعدد(٢).

وكذلك ما أخـرجه من خبر صفوان بن عـمرو قال: جاءنا كتاب عمـر بن عبد العزيز وهو خليفـة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصنًا من حصـون الروم ولا جماعة من جمـاعاتهم حـتى تدعوهم إلى الإسـلام، فإن قـبلوا فاكـفف عنهم، وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء.

وأخرج أيضًا من خـبر المنذر بن عبيد قـال: كتب إليَّ عمر بن عـبد العزيز في الذمي يغزو مع المسلـمين فَيُؤَمِّن العـدو، فكتب: لا يجوز أمانه، وقـال: إنما قال رسول الله ﷺ: يجير على المسلمين أدناهم وهذا ليس بمسلم(٣).

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٥٦، والصائفة هي الحملة العسكرية التي تخرج في الصيف.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٥٣.

(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٥٥.

اهتمامه بمكارم الأخلاق

نفوره من الاتهام بالكذب:

نجد من مواقف عـمر بن عبد العـزيز، تقديره البالغ لمكارم الأخلاق، وغـضبه واشمئزازه من مساوئها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم من أن عمر خرج مع سليمان بن عبـد الملك يريد الصائفة(١). فالتقى غلمانه وغـلمان سليمان على الماء فاقـتتلوا، فضـرب غلمان عمـر غلمان سليـمان، فشكوا ذلك إلى سليـمان، فأرسل إلى عـمر فقـال له: ضرب غلمانك غلمـاني، قال: ما علمت، فـقال له سليمان: كذبت، قال: مـا كذبت مذ شددت علَّي إزاري وعَلمتُ أن الكذب يَضُرُّ أهله، وإن في الأرض عن مجـلسك هذا لسعة، فـتجهـز يريد مصـر، فبلغ ذلك سليمان فـشقَّ عليه فدخلت فيمـا بينهما عمة لهـما، فقال لها سليـمان: قولي له يدخل عليَّ ولا يعاتبني، فـدخل عليه عمر فـاعتذر إليه سليمـان، وقال له: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكربنى أمر إلا خطرتَ فيه على بالي، فأقام(٢).

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر إحساسًا إسلاميًا رفيعًا وإدراكًا بالغًا لخطورة الكذب ومهانة مرتكبيه، فالمؤمن الحـق قد يتعرض لبعض الذنوب التي منها ارتكاب الظلم ولكنه لا يمكن أبدًا أن يكذب لأن الكذب يتنافى مـع الإيمان كما جـاء في الحديث الذي أخرجـه الإمام مـالك عن صفـوان بن سُلَيم أنه قال قـيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جبانا؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ فقال: لا»(١).

ونظرًا لخطورة الاتهام بالكذب وما يحـدثه في نفس المؤمن الواعي من فزع وهو فإننا نجـد عمر بن عبد الـعزيز قد فزع كثـيرًا حينما اتهـمه سليمان بن عـبد الملك بالكذب، ونفى عن نفسـه بسرعة أن يكون قد قـارف الكذب من حين بلوغه سنَّ الـتمييـز، وأنه قد أدرك في تـلك السنِّ المبكرة خطورة الكذب فحـمى نفسـه من

(١) يعني الجهاد في الصيف، وكانوا لشدة البرد في بلاد الروم يخرجون صيفا غالبا.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٢٧-٢٨، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/٢٩.

(٣) موطأ مالك، كتاب الكلام، رقم ٢/ ٩٩٠.

الوقوع فيه، ويبلغ فزعه من هذه التهمة وتأثره بها إلى حد العزم على مغادرة الشام إلى مصر، لمفارقة البلد الذي اتُّهم فيه بهذه التهمة الفظيعة.

والكذب يعتبر ضعفًا في النفس، وجبنًا عن المواجهة، ولذلك نجد بعض الكبراء يُنزهون أنفسهم منه لا من منطلق منافاته للإيمان، وإنما من منطلق تعارضه مع الرجولة الكاملة وكونه من صفات النقص والضعف، فنجد الحجاج بن يوسف مثلا يقول لأحد كتابه: ما يقول الناس فيّ؟ فاستعفاه فلم يُعْفه، قال: يقولون إنك ظلوم غشوم قتال عسوف كذاب، قال: كل ما قالوا فقد صدقوا فيه إلا الكذب فوالله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله(١).

من أمثلة تواضعه:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال: رأيت عمر بن عبد العزيز إذا صلى المكتوبة انصرف إلى أهله لا يتطوع(٢)، وربما جلس فجاء الغريب الذي لا يعرفه، وكان يقوم من هذه الحلقة فيجلس مع هذه الحلقة يسأل عن أمير المؤمنين وفي أي حلقة هو! فيقف لا يدري أيهم حتى يشار إليه: هذا أمير المؤمنين، فيسلم عليه بالخلافة(٣).

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الإمام الأوزاعي قال: كان عمر بن عبد العزيز يجلس إلى قاصٍّ العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع، ودخلت عليه ابنة أسامة بن زيد رضي الله عنهما ومعها مولاة لها تمسك بيدها، فقام لها عمر ومشى إليها حتى جعل يدها في يده ويداه في ثيابه، ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه، وجلس بين يديها، وما ترك لها حاجة إلا قضاها(٤).

وقال أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم: وناداه رجلٌ فقال: يا خليفة الله في الأرض. فقال له عمر: مَهْ إني لما ولدت اختار لي أهلي اسمًا فسَمَّوْني عمر فلو ناديتني يا عمر أجبتُك. فلما كبرت اخترت لنفسي الكُنى فكُنِّيتُ بأبي حفص فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتُك. فلما وليتُموني أُموركم سميتموني أمير المؤمنين فلو

(١) هامش سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/٢٨.

(٢) أي لا يصلي السنة الراتبة في المسجد وإنما يصليها في البيت لكون ذلك أفضل.

(٣) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٠-٢١١.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز/١٤٦.

ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك. وأمَّا خليفة الله في الأرض فلست كذلك ولكن خلفاء الله في الأرض داود النبيُّ عليه السلام وشبهُه قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦][(١)].

جوابه لمن اتهمه بالكبر:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من حديث الليث بن سعد أن أبا النضر حدثه قال: دسست إلى عمر بن عبد العزيز بعض أهله أن قل له: إن فيك كبرًا وأنك تتكبر، فقيل ذلك له، فقال عمر: لبئس ما ظننتَ إن كنتَ تراني أتوقى الدينار والدرهم مراقبة لله وأنطلق إلى أعظم الذنوب فأرتكبه. الكبرياء إنما هو رداء الرحمن فأنازعه إياه، ولكن كنت غلامًا بين الغلمان -أو قال بين ظهري قومي- يدخلون عليَّ بغير إذن ويتوطئون فرشي ويتناولون مني ما يتناول القوم من أخيهم الذى لا سلطان له عليهم. فلما أن وليت خيرت نفسي في أن أمكنهم من حالهم التي كنت لهم عليها وأعاقبهم فيما خالف الحق أو أتمنع منهم في بابى ووجهي ليكفوا عني أنفسهم وعن الذي أحذر عليهم لو كنت جرأتهم على نفسي من العقوبة والأدب فهو الذى دعاني إلى هذا[(٢)].

وهكذا اتُّهم هذا الولي الصالح والحاكم العادل بالكبر، وإنه لعجيب جدًا أن يُظَنَّ بعمر بن عبد العزيز أنه متكبر وهو الذي خلَّف الدنيا بجاهها ومالها وراء ظهره، ولكن الذين ليست لديهم تجارب إدارية يعتقدون أن المسئول يجب أن يكون بابه مفتوحًا للناس في جميع الأوقات، ولا يعلمون أنه لو فعل ذلك لأضاع كثيرًا من أمور الأمة المهمة التي تحتاج إلى دراسة ونظر ومشورة من أصحاب الشأن، كما أن المسئول يحتاج إلى وقت للتأمل والتفكير فيما يصلح أمور الأمة ويرفع من مستواها المادي والفكري وغير ذلك مما يلزم له الاحتجاب عن عامة الناس بعض الوقت.

مثل من حلمه على من جهل عليه:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الإمام الأوزاعي: أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام ثم عاقبه كراهية أن يعجل في أول غضبه.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٩٤.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٤٨.

قال: وأسمعه رجل كلامًا فقال له: أردتَ أن يستفزني الشيطان فأنال منك اليوم بما تنال أنت مني يوم القيامة، انصرف عني عافاك الله ورحمك[1].

مثل آخر من حلمه:

ومن أمثلة تخلقه بخلق الحلم ما أخرجه محمد بن سعد من خبر عمر بن حفص قال: حدثنا شيخ قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز بدابق خرج ذات ليلة ومعه حرسيّ فدخل المسجد فمرّ في الظلمة برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون أنت؟ قال: لا، فهمَّ به الحرسي، فقال له عمر: مَهْ إنما سألني أمجنون أنت فقلت لا[2].

وهكذا يمثّل عمر بن عبد العزيز القمة في مكارم الأخلاق وقد بلغ القمة في الجاه الدنيوي، حيث كان أكبر أمير على وجه الأرض، ومع ذلك يحتمل هذه الكلمة القاسية وينهى حارسه لما أراد أن يعاقب ذلك الرجل.

عفوه عن الذي شجه في وجهه:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر قيس بن عبد الملك قال: وقام عمر ابن عبد العزيز إلى قائلته وعرض له رجل بيده طومار، قال فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت أمير المؤمنين فأصابه في وجهه فشجه، فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو في الشمس، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته وخلى سبيله!![3].

مثل من عفوه عند الغضب:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر إبراهيم بن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يومًا على رجل غضبًا شديدًا فبعث إليه فجرده ومده في الحبال، ثم عاد بالسياط حتى قلنا: هو ضاربه، قال: خلوا سبيله، أما إني لولا أني غضبان

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٥-٢٠٦، وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٠١ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥١.

(٢) الطبقات الكبرى ٥/ ٣٩٧، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٦، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥١.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٣١١، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥٠-١٥١.

لسؤتـك، وقرأ ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤][(١)].

فهذا الرجل قـد أغضب بجهله أمير المؤمـنين عمر بن عبد العـزيز ولكنه وسعه بحلمه، والحلم عند الجهل من مكارم الأخلاق العالية.

وفي قوله «أردت أن يستـفزني الشيطان» إدراك منه لسلاح من أسلـحة الشيطان التي يغوي بها أصحاب المسئولية، فيحملهم على السلوك المنافي لمكارم الأخلاق.

ونجده -رحمـه الله- يتذكر الآخرة حـالا فيبين أن النزول إلى مستوى الجاهلين ينزِّل من درجات المسلم في الآخـرة، بينما تكون عاقبة الـصبر على الأذى والحلم عن الجاهلين والإمساك عن الجدل معهم رفعة الدرجات في الجنة كما جاء في قول النبي ﷺ «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا»[(٢)].

مثل من رحمته بالمجاهدين:

ذكر ابن عبد الحكم أن أميـر المؤمنين عمر بن عبد العزيز استفـتح خلافته بثلاثة كتب، ذكـر منها هذا الكتـاب حيث قال: كـتب بقفل مـسلمة بن عـبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها برًا وبحرًا وأشفى على فتحها، ثم خُدع عنها حتى أحرزوا طعـامهم وحوائجهم ثم أغلقوها دونه بعد الإشفـاء عليها، فبلغ ذلك سليمان فغضب مما فُعل به فحلف أن لا يقفله منها ما دام حيًا، فاشتدَّ عليهم المقام وجاعـوا حتى أكلوا الدوابَّ من الجهد والجوع حـتى يتنحى الرجل عن دابَّته فتقطع بالسيوف فبلغ رأس الدابَّة كذا وكذا درهمًا. ولجَّ سليمان في أمرهم. فكان ذلك يغمُّ عمر فلما ولي رأى أنه لا يسعه فـيما بينه وبين الله عز وجل أن يلي شيئًا من أمـور المسلمين ثم يؤخـر قـفلهم سـاعـةً فـذلك الذي حـمله على تعـجـيل الكتاب[(٣)].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٥٠.

(٢) سنن أبي داود رقم ٤٨٠٠، ؛كـتاب الأدب باب ٨، والزعيم هو الضـامن، وربض الجنة يعني طرفـها، والمراء هو الجدال والنزاع.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٣٧.

رحمته بالأسرى:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الإمام الأوزاعي قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أن فاد أساري المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[1].

مثل من رحمته بالأيتام:

قال الحافظ ابن كثير: وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبي منهم، فاحتملوا الصبي الذى شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر، فسمع الجلبة فخرج إليهم فإذا مريئة تقول: إنه ابني وإنه يتيم، فقال لها عمر: هوني عليك، ثم قال لها عمر: أله عطاء في الديوان؟ قالت: لا قال: فاكتبوه في الذرية، فقال زوجته فاطمة: أتفعل هذا به وقد شجَّ ابنك؟ فعل الله به وفعل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية، فقال: ويحك إنه يتيم وقد أفزعتموه![2].

وهكذا يشمل لطفه ذلك اليتيم مع إساءته إلى أحد أبنائه، ويحظى منه بالتعويض المالي مقابل ذلك الفزع الذي حصل له، فما أبلغ رحمة عمر، وما أرق مشاعره، وما أسمى تفكيره في معاملة إخوانه المسلمين!!

مثل من رحمته بالغلمان:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: قال لي رجاء بن حيوة: ما أكمل مروءة أبيك، سمرت عنده ذات ليلة فعشى السراج فقال لي: ما ترى السراج قد عشى؟ قلت: بلى، وإلى جانبه وصيف راقد، قال قلت: ألا أنبهه؟ قال: لا دعه يرقد[3]، قال: قلت: أفلا أقوم أنا؟ قال: لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه، قال: فوضع رداءه ثم قال إلى بَطَّة زيت معلقة فأخذها فأصلح السراج ثم ردها إلى موضعها ثم رجع، قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[4].

(١) حلية الأولياء ٥/ ٣١٢.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٥٠.

(٣) وفي رواية ابن كثير «لا أحب أن أجمع عليه عملين».

(٤) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٥-٢٢٦، وانظر الزهد للإمام أحمد/ ٢٩٨، والبداية والنهاية ٩/ ٢٠٣.

فهذا الخبر يدل على قلب كبير يعرف مكارم الأخلاق ويقدرها. فهو يؤثر الرحمة بالمستخدمين على القسوة عليهم، ويؤثر إكرام الضيف على تكليفه بخدمته مع أنه أمير المؤمنين وأعظم حاكم على وجه الأرض آنذاك، فالرحمة والتواضع من أخلاق العظماء، ولا يتصف بهما إلا من تجرد من حظ النفس وعاش للآخرين بفكره وجسمه ووقته.

رحمته بجارية له:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبرِ النضر بن سهيل عن أبيه قال: قال عمر بن عبد العزيز لجارية له: يا جارية روحيني، فأقبلت تروحه فغلبتها عينها فنامت، فأخذ المروحة وأقبل يروحها، فانتبهت فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحرِّ ما أصابني، وأحببت أن أروِّحك مثل الذي روحتني[1].

مثل من رحمته بأهل الذمة:

أخرج ابن سعد من خبر عمر بن بهرام الصراف قال: قُرِئَ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطأة ومن قِبَله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبُر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمُرْ حميمه ينفق عليه، وقاصَّه من خراجه[2] كما لو كان لك عبد فكبرتْ سِنُّه لم يكن لك بُد من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق[3].

فهذا مثل على سمو حكام المسلمين إذا تمثلوا بالإسلام وطبقوا تعاليمه، وهو بالتالي شاهد على عظمة الإسلام الذي أخرج هذا الحاكم العادل الرحيم وأمثاله، فالذمي الذي يفتقر لا يضيع في دار الإسلام، لأن حكومة الإسلام ترعاه كما ترعى فقراء المسلمين، وهي لا ترجو منه نفعًا ولا دفع ضرر وإنما تمثل بذلك مكارم الأخلاق التي هي من أعظم مقاصد الإسلام.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/١٤٦.

(٢) أي حُطَّ عن صديقه من خراجه ما أنفق عليه.

(٣) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٨٠.

مثل من رحمته بالحيوان:

لم تقتصر رحمة عمر بن عبد العزيز على الإنسان، بل شملت الحيوان الأعجم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله حيان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلاً نَقَّالات، يُحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفنَّ أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل[١].

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر أبي عثمان الثقفي قال: كان لعمر بن عبد العزيز غلام يعمل له على بغل له، يأتيه بدرهم كل يوم، فجاءه يومًا بدرهم ونصف، فقال: ما بدا لك؟ فقال: نَفَقَت السوق، قال: لا ولكنك أتعبت البغل، أرْجِه ثلاثة أيام[٢].

***

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٦٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦٤.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٠، وارْجِه بمعنى أخِّره للراحة.

مواقفه في الزهد والورع والخشية

خبر بدء إنابته:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد الله بن كثير قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: ما كان بُدُوُّ إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال لي: يا عمر اذكر ليلةً صبيحتها يوم القيامة(١).

فهذه موعظة صادفت قلبًا مهيئًا لها فتمكنت منه، وكانت سببًا في يقظة عمر بن عبد العزيز وإنابته.

خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال: حج سليمان ابن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فأصابهم ليلة برق ورعد، فكادت تنخلع أفئدتهم، فقال سليمان: يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها؟! قال: يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله؟!(٢).

فهذا مثال على براعة عمر بن عبد العزيز في اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى وترقيق القلوب وإثارة الخشية فيها.

خروجه للنزهة والعبرة في ذلك:

من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تذكر الآخرة وسرعة استحضاره لأهوالها ما ذكر ابن عبد الحكم قال: وخرج عمر بن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه لم يكن عمر قدَّم فيه ثقلاً، فبلغ المنزل فصار كل رجل إلى مضربه الذي قدَّمه، وصار سليمان إلى حجرة، ثم فقد عمر فقال: اطلبوه فما أراه قدَّم شيئًا، فطُلب فوُجد تحت شجرة باكيًا، فأُخبر بذلك سليمان

---

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٥٠-١٥١.

(٢) المرجع السابق ٤٥/ ١٥٣، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٣٠

فدعاه فقال: ما يبكيك يا أبا حفص؟ قال: أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة، من قدَّم شيئًا وجده، ولم أقدم شيئًا فلم أجد شيئًا[1].

وهكذا رأينا مثالا للوعي الدقيق والتذكر البليغ لأهوال يوم القيامة وأسباب النجاة فيه، فحينما خرج عمر بن عبد العزيز ولم يُخْرِج معه متاعًا ذهب كل إنسان بما أعد لنفسه، وبقي عمر بدون شيء، وكان بإمكانه أن يطلب من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ما يشاء وهو الأثير عنده، ولكن غلب عليه تذكر الآخرة فأثار شجونه وأبكاه وشغله عن البحث عما يحتاجه من متاع الدنيا.

وهكذا تكون قلوب أهل اليقظة والتفكر، فإذا وقع الإنسان منهم في عسر وشدة تذكر شدائد يوم القيامة، فشغله التفكير فيها عن التألم لوضعه الحاضر في الدنيا.

وإذا أنعم الله عليه بنعم الدنيا تذكر عظمة نعيم الآخرة فزهد في الدنيا، ودفعه ذلك إلى شكر المنعم جلا وعلا.

خبره مع الغراب وما فيه من العبر:

قال الحافظ ابن كثير: وقال عثمان بن زبر: أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: ما تقول يا عمر في هذا؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضًا وأنت المسئول عن ذلك كله، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبه، فقال له سليمان: ما هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري، فقال ما ظنك أنه يقول؟ قلت: كأنه يقول: من أين جاءت وأين يُذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك!! فقال عمر: اعجب ممن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها[2].

ونجد في هذا الخبر أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك كان معجبًا بحكمة عمر بن عبد العزيز وتأملاته العميقة في أمور الدنيا وربطها بأمور الآخرة.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٢٧.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٧٠.

ونجد عمر عبد العزيز في هذا الخبر وأمثاله يغتنم الفرص ليوجه من حوله إلى الاستقامة على أمور الدين وتذكُّر الحياة الآخرة، فهو حينما سأله سليمان عن نعب الغراب وهو يحمل تلك اللقمة اغتنم الفرصة ليذكِّره بلزوم الاستقامة في كسب الأموال وإنفاقها، وإذا ضمن الإنسان الاستقامة في ذلك فقد ضمن الرزق الحلال الخالي من الحرام والشبهات وضمن الإنفاق الحلال الخالي من السرف والخيلاء.

وحينما تعجب سليمان من تفكير عمر زاده موعظة ببيان أن العجب الحقيقي أن ينحرف المسلم عن الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة، بعدما عرف هذا الطريق وعرف المستقبل الأخروى، لمن استقام عليها ولمن انحرف عنها.

خشيته من العذاب بالريح

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سلام بن أبي مطيع قال: نبئت أن عمر بن عبد العزيز لما قام هاجت ريح، فدخل عليه رجل فإذا هو منتقع اللون فقيل له: يا أمير المؤمنين مالك، قال: ويحك، وهل هلكت أمة قط إلا من الريح[1].

فأكثر الناس يرون الريح ويحسون بها ولا تثير في أنفسهم شيئًا من الخشية لاعتيادهم عليها، ولكن عمر بن عبد العزيز تذكر على الفور عذاب الله تعالى للأمم السابقة فتأثر تأثرًا شديدًا من ذلك، وهذا دليل على يقظة ضميره وقوة خشيته من الله تعالى.

خشيته من ارتكاب السيئات فى مكة

ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الملاء من خبر القاسم بن محمد بن أبى بكر أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين ويخرج في الثالث، فقال له عبد الله بن عمر بن عيسى بن عمار: لو أقمت فاستمتعت بهذا البيت واستمتعنا معك!! فقال: ما أظن أحد منكم أشد حبًا لهذا البيت منى ولكن والله لكأنى على الرَّضَف[2] من حين أدخله إلى حين أخرج فرقًا من أن أُحدث.

قال: وهذا حينما كان واليًا على المدينة زمن الوليد[3].

---

(١) حلية الأولياء/ ٥/ ٣١٣.

(٢) أي الحجارة المحماة.

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ ٤٧.

فهذا مثل من تعظيم عمر بن عبد العزيز للحرم المكي وخشيته من أن يكتب في صحيفته مخالفة وهو فيه لما كان يعلم من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها، على الرغم من علمه بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف، ولكن لشدة خشيته فإنه يؤمن بأن اجتناب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات.

زهده في مظاهر الخلافة:

من مواقفه التي جرت منه بعدما بويع بالخلافة، انصرافه عن مظاهر الدنيا وتحكيمه للكتاب والسنة في دقيق الأمور وجليلها، قال ابن عبد الحكم رحمه الله: ولما دُفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز فقرِّبت إليه المراكب قال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم ضمَّ هذا إلى بيت مال المسلمين، ونُصبت له سرادقات وحُجَر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يَلُون، فقال: ما هذه؟ فقالوا: سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي، قال: يا مزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يُفضي إلى الحصير، ثم قال: يا مزاحم ضمَّ هذا لأموال المسلمين.

قال: وبات عيال سليمان يُفَرِّغون الأدهان والطيب هذه القارورة إلى هذه القارورة، ويلبَسُون ما لم يُلبَسُ من الثياب حتى تتكسر، وكان الخليفة إذا مات فما لُبس من الثياب أو مُسَّ من الطيب كان لولده، وما لم يُلبس من الثياب وما لم يُمَسَّ من الطيب فهو للخليفة بعده، فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان: هذا لك وهذا لنا، قال: وما هذا وما هذا؟ قالوا: هذا ما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده، وما لم يمسَّ ولم يلبس فهو للخليفة بعده وهو لك، قال عمر: ما هذا لي ولا لسليمان ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين، ففعل.

فتوامر الوزراء فيما بينهم فقالوا: أما المراكب والسرادقات والحجر والشوار[1] والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم، وبقيت خصلة وهو الجواري نعرضهن عليه، فعسى أن يكون ما تريدون فيهن، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده، فأُتِي بالجواري فعُرِضن عليه كأمثال الدُّمَى، فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة: من أنت ولمن كنت ومن بعث بك؟ فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت، فيأمر بردهن إلى أهليهن، ويُحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن، فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق[2].

وهكذا رأينا مشهداً من العادات السيئة والمظاهر الدنيوية التي توارثها الأمراء قبل عمر بن عبد العزيز وأصبحت تتراكم شيئًا فشيئًا حتى وصلت إلى حد لا يختلف كثيراً في الأبهة والتعاظم عما كان عليه ملوك فارس والروم، وكان الأمراء يرون في تلك المظاهر تثبيتًا لحكمهم وتعظيمًا لهيبة السلطان في نفوس الرعية.

ولما تولى عمر بن عبد العزيز رأى أن قيمة تلك المظاهر أُخذت من بيت مال المسلمين بدون حق، إلى جانب كونها تنطلق من خُلق الكبر الذي جاء ذمه في الإسلام، وتتنافى مع خلق التواضع الذي جاء مدحه في الإسلام، فأمر مولاه مزاحمًا بأن يُدخلها في بيت مال المسلمين، وركب مركبه السابق الذى لا يميزه عن عامة المسلمين وأوساطهم.

وفي هذا الخبر تبين لنا كيف كان الولاة يتصرفون بأموال المسلمين بغير حق، ويبتكرون عوائد من الحقوق الخاصة بالوالي الذاهب والوالي القادم في أموال ليس لهم حق التصرف فيها.

وفي تصرف عمر إزاء ذلك مثل واضح على عدله ورعايته لحقوق المسلمين العامة حيث رد تلك الأطياب والملابس إلى بيت مال المسلمين، وبيَّن أنه ليس له حق فيها ولا للأمير الذي قبله وأن هذه العادة مخالفة للإسلام.

كما أن في هذا الخبر دلالة على رعاية عمر للحقوق الخاصة، فتلك الجواري التي كانت تساق كالدُّمَى، وقد حُرِمن من المطالبة بحقوقهن، واعتُبِرن من جملة

---

(١) يعني اللباس والزينة ومتاع البيت.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/٣٨-٤٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/٤٢.

المتاع الذي يرثه الأمراء خَلَفًا عن سلف، قد نظر عـمر في أمرهن من ناحية الشرع فلما تحقق أنهن قد أُخذن بطريقة غير مشروعة أعادهن إلى أهاليهن.

ونجـد في هذا الخبـر مـثلا مـن تفكر أصحـاب النفـوذ ممن ألفـوا تلك المظاهر والعوائد، حـيث أرادوا اختبار عـمر بالجواري لما ردَّ الفرش والأثاث والبـيوت لأن داعي الاحـتفـاظ بالجواري أقـوى لدى النفوس الـتي لا تلتزم في سـيرها بهـدي الإسلام الشامل لكل نواحي الحياة، فلما ردَّ الجواري أيسوا منه وعرفوا أنه سيحمل الناس على الحق الذي يعرفونه ولكنْ يمنعهم من العمل به اتباع الهوى المنحرف.

زهده في مخصصات الخلافة:

من مواقف عمر بـن عبد العزيز في الورع ما ذكره ابن عـبد الحكم قال: وكان عمـر قد طلق نفسه من الـفيء فلم يُرزَق منه شيـئًـا إلا عطاءً مع المسلمين، فدخل عليه ابن أبي زكـريا فقال: يا أميـر المؤمنين إني أريد أن أكلمك بشيء، قال: قل، قال: قد بلغني أنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار، قال: نعم، قال: ولمَ ذلك؟ قال: أردت أن أغنيهم عن الخيانة، قال: فأنت يا أمير المؤمنين أولى بذلك، قال: فأخـرج ذراعه وقال: يا ابن أبي زكريا إن هذا نبت من الفيء ولست مـعيدًا إليه منه شيئًا أبدًا(١).

وهكذا حرم عمـر نفسه من الأجر الذي يعطيه للولاة تورعًا، ولو سـوَّى نفسه بهم لم ينكر عليه أحد، بل لو زاد عنهم قليلا مقابل كثرة نفقته لمنصبه لما كان ذلك منكرًا، ولكنه تورع عن ذلك، وكـان تذكره للتجـاوز الذي كان من ولاة عشـيرته مانعًا له حتى من أخذ حقه في بيت المال فرحمه الله رحمة واسعة.

مثل من طموحه نحو المعالي:

أخرج محمد بن سعد من خبر سعـيد بن عامر عن جويرية بن أسماء قال: قال عمر بن عبد العزيز: إن نفـسي هذه نفس تواقة، وإنها لم تعط شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أُعطِيَت الذي لا شيء أفضل منه في الدنيا تاقت إلى ما هو أفضل من ذلك.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤٦.

قال سعيد: الجنة أفضل من الخلافة[1].

فهذه المقارنة تبين لنا عظمة عمر بن عبد العزيز ورجاحة عقله وسمو تفكيره، فإن أعلى منزلة في الدنيا لا تعادل أدنى منزلة في الجنة، فمن ضيع منازل الجنة بالحرص على منازل الدنيا كان من الخاسرين.

ورعه عما حمل على دواب البريد:

قال ابن عبد الحكم في رواية له: وأتت إليه سلتا رُطَب من الأردن، فقال: ما هذا؟ قالوا: رطب بعث به أمير الأردن، قال: علام جيء به؟ قالوا: على دواب البريد، قال: فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين، أخرجوهما فبيعوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد، فغمزني[2] ابن أخيه فقال لي: اذهب فإذا قامتا على ثمن فخذهما عليّ، فجئت بهما إلى ابن أخيه فقال: اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين، وحبَس لنفسه واحدة، فأتيته بها فقال: ما هذا؟ قلت: اشتراهما فلان ابن أخيك فبعث إليك بهذه وحبس لنفسه الأخرى، قال: الآن طاب لي أكله[3].

وهذا مثال دقيق على ورع عمر واهتمامه البالغ بالحلال والحرام فإن فكر المسلم العادي لا يذهب إلى السؤال عن الدواب التي حُمل عليها الطعام، وإنما قد يسأل عن الطعام نفسه من باب التحري، ومع أن البريد لم يأت من أجل ذلك التمر فإن عمر رده تورعًا، وأمر بجعل ثمنه علفًا لدواب البريد، وحينما تصرف ابن أخيه ذلك التصرف الحسن فأهداه من ذلك التمر أكل منه طيبةً به نفسه، فما أعظم الإسلام متمثلاً في صدور السابقين بالخيرات الذين يميزون بين الحلال الخالص والشبهات التي قد توصل إلى الحرام!

رده أحد أملاكه من الإقطاع:

من مواقفه رحمه الله في الورع ما حدث به الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن عبد العزيز لمزاحم -وكان مزاحم مولاه وكان فاضلا- قال: إن هؤلاء القوم- يعني أهله- أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن

(١) طبقات ابن سعد ٥/٤٠١، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/٢٠٨.

(٢) القائل هو راوي الخبر أبو شيبان وهو الذي قدم بالرطب.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٥٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٣٣.

يعطوني، وإني قد هممت بردها على أربابها قال فقال مزاحم: فكيف تصنع بولدك؟ قال: فَجَرَتْ دموعه على وجنته وجعل يمسحها بأصبعه الوسطى ويقول: أكِلُهم إلى الله، قال عبد الله: وكأن مزاحمًا -مع فضله- لم يقنع بقوله: فخرج مزاحم فدخل عليٍ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، فقال: إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمر لَهُو أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا، إنه همَّ بردِّ السهلة -قال عبد الله: وهي باليمامة وهي أمر عظيم- قال: وكان عيش ولده منها، قال عبد الملك: فماذا قلت له؟ قال كذا وكذا، قال: بئس لعمر الله وزير الخليفة أنت، قال: ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوأ مقيله، قال: فاستأذن فقال له البواب: إنه قد تبوأ مقيله، قال: ما منه بد، قال: سبحان الله ألا ترحمونه! إنما هي ساعته، قال: فسمع عمر صوته فقال: عبد الملك؟ قال: نعم، قال: ادخل، فدخل، قال: ما جاء بك؟ قال: إن مزاحمًا أخبرني بكذا وكذا، قال: فما رأيك فإني أريد أن أقوم بالعشية؟ قال: أرى أن تعجله فما تأمن أن يحدث الله بك حدثًا، قال: فرفع يديه وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني، قال: ثم قام من ساعته فجمع الناس وأمر بردها[1].

وهكذا لما علم أن تلك المزرعة التي باليمامة قد آلت إليه عن طريق الإقطاع من الولاة الذين سبقوه تحرج من بقائها في ملكه، لأنه ليس كل المسلمين نالوا مثل ذلك، فلم ير أن له حقًا في الاختصاص بملكها، فردها إلى بيت مال المسلمين، مع ما ذُكر من أنها ملك عظيم وأن عيش أولاده منها، وهذا مثال على إحساسه الدقيق وورعه العميق.

وفي هذا الخبر يظهر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ورعًا تقيًا كأبيه، وبهذا الإيمان القوي والسلوك العالي كان عبد الملك عونًا لأبيه في حمل الناس على الاستقامة، خاصة فما يتعلق بأسرته رحمهما الله تعالى.

مقدار ما رده من ماله لبيت المال:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال: دعاني أبو جعفر[2] فقال: كم كانت غلة عمر حين أفضت إليه الخلافة؟

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٨٩-٩٠، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٧٩-١٨٠.

(٢) هو أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور.

قلت: خمسون ألف دينار، فقال: كم كانت يوم مات؟ قلت: ما زال يردها حتى كانت غلته مائتى دينار، ولو بقي لردها[1].

وإذا كانت غلة أملاكه خمسين ألف دينار فكم هي قيمتها؟! إنها مبلغ كبير، ومع ذلك عفّ عنه ورده إلى بيت مال المسلمين، فخلّد بذلك ذكره في الدنيا وحاز على الدرجات العُلَى في الآخرة.

مثل من تورعه عن مال المسلمين:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يزيد بن أبي حبيب قال: وقيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لو أنك أخذت كما يأخذ عمر بن الخطاب، يأخذ درهمين كل يوم، قال: إن عمر لم يكن له مال، وأنا لي مال يغنيني عن ذلك، ورد عمر ابن عبد العزيز في بيت المال ما كان أعطاه سليمان والخلفاء قبله[2].

استجابة دعائه في ابنه الصغير:

من مواقفه أيضًا في الورع رحمه الله ما قام به من رد أمواله التي شك في أصل اكتسابها إلى بيت مال المسلمين، وفي ذلك يقول: ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العينَ التي بالسويداء فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط فعملتها من صلب عطائي الذي يُجمع لي مع جماعة المسلمين، فجاءته غلتها مائتا دينار، وجراب فيه تمر صيحاني وتمر عجوة، فقال: هات اصبُبْ للقوم من هذه العجوة فهي أبرد وأصح.

وهكذا رد عمر أمواله إلى بيت مال المسلمين لاعتقاده بأن أصلها من مال المسلمين العام، وأن الولاة الذين سبقوه أعطوه إياها بغير حق لأنهم لم يعطوا سائر المسلمين مثلها ما عدا ذلك البستان الذي ذكر في السويداء حيث كان من عطائه الذي يأخذ مثله أي فرد من المسلمين، فأصبح يأكل من غلته القليلة وهو قرير العين لأن أصله حلال ليس فيه شبهة.

وجاء في سياق هذه الرواية «قال: وسمع النساء بمال قد قدم عليه فأرسلن إليه بابن له غلام ليعطيه من ذلك المال، فلما جاء الغلام قال: احفنوا له من ذلك

(1) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٠.

(2) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٩٢.

التمر، فحفنوا له من ذلك، فخرج الغلام فرحًا حتى إذا انتهى إلى النساء فرأين التمر ضربن الغلام، ثم قلن له: اذهب فانثره بين يديه، فأقبل الغلام فنثره بين يديه وأهوى بيديه إلى الذهب، فقال عمر للوليد بن هشام من آل أبي معيط: أمسك يديه يا وليد، فأمسك يديه الوليد، ودعا عمر بدعاء له كثير، وكان من دعائه: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، بَغِّض إلى هذا الغلام هذا الذهب كما حبَّبتها إلى فلان بن فلان، أرسل يديه يا وليد، فارتعشت يداه فما مس منها دينارًا وانصرف، فقال له رجل: لقد استجيبت لك يا أمير المؤمنين، ثم قال عمر: أخرجوا زكاة هذه المائتي دينار[1] فقال الرسول: يا أمير المؤمنين لقد أُخِذ خرص هذا الحائط، قال: يا بني ليس هذا من عملك، قال: فأخرجوا خمسة دنانير، ثم قال: دلوني على رجل أعمى ليس له قائد، قال: بينما القوم يتذاكرون، قال عمر: لقد وقعت عليه وقد ذكرته وهو الشيخ الجزري الأعمى، يأتي في الليلة المظلمة الماطرة ليس له قائد، أخرجوا له ثمن قائد، لا كبير يقهره ولا صغير يضعف عنه، قال: فأخرجوا له منها خمسة وثلاثين دينارًا قال: ثم دعا عمر بالذي يقوم على نفقة أهله فقال: خذ هذه الذهب فأنفقها على عيالنا إلى أن يخرج عطائي مع المسلمين أو يقضي الله قبل ذلك[2].

وفي هذا الخبر رأينا فزع عمر حينما جاء ولده الصغير فرمى بالتمر وأخذ الذهب ودعا الله تعالى أن يبغِّض إليه الذهب فارتعشت يدا الولد، ولم يمسَّ منها دينارًا، وهكذا استجاب الله تعالى دعوة ذلك الإمام العادل في الحال، وهذا دليل على قربه من الله تعالى وصلاحه.

ونجد عمر في هذا الخبر مع شدة احتياجه للمال وقلة غلة بستانه ينفق منها خمسة وثلاثين دينارًا أجرة لقائدٍ خصصه لرجل أعمى.

فما أعظم عمر بن عبد العزيز! وما أشد إحساسه بحاجات الناس!

---

(١) يعني غلة بستانه.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٤٧، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩١.

أمثلة من تحريه في ملكية الجواري:

من ذلك خبر الجارية التي أهدتها إليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك، فقال للجارية: لمن كنت؟ قالت: وهبني عبد الملك لفاطمة، قال: فلمن كنت قبل عبد الملك؟ قالت: كنت لقوم بالبصرة فأخذ عاملها أموالهم، فكنت فيما أخذه، فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني لفاطمة، فدعا عمر بالبريد فكتب إلى عامل البصرة فأمره بردها إلى أهلها(١).

فهذا مثل من أمثلة بعده عن شهوات الدنيا، وتحريه عن مصادر الأموال ليعيد الحقوق إلى أصحابها، فقد بحث عن أصل ملكية تلك الجارية حتى تبين له أنها وصلت إلى فاطمة بنت عبد الملك من طريق غير صحيح فأعادها إلى أهلها.

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى قال حدثني أبي عن جدي. قال: كانت لفاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر جارية، فبعثت بها إليه وقالت إني قد كنت أعلم أنها تعجبك وقد وهبتها لك فتناول منها حاجتك. فقال لها عمر اجلسي يا جارية فوالله ما شيء من الدنيا كان أعجب إلي أن أناله منك، فأخبريني بقصتك وما كان من سببك؟ قالت: كنت جارية من البربر جنَى أبي جناية فهرب من موسى بن نصير عامل عبد الملك على أفريقية فأخذني موسى بن نصير فبعث بي إلى عبد الملك فوهبني عبد الملك لفاطمة فأرسلت بي إليك، فقال: كدنا والله نفتضح، فجهزها وأرسل بها إلى أهلها(٢).

وهكذا سما عمر بن عبد العزيز بإيمانه القوي ويقينه الراسخ على شهوات النفس، مع أن الظاهر من الخبر أن تلك الجارية مباحة له بعد أن أهدتها إليه زوجته التي تملكها، ولكنه لم يكن في وقته متسع للنساء بعد أن شغل جُلَّ وقته بأمور الرعية، ثم ألهمه الله تعالى إلى البحث عن أصل تلك الجارية فتبين له أنها وصلت بطريق غير مشروع فردها إلى أهلها لأنها لم تَعْد جارية مملوكة بل حرة اغتصبت من أهلها، وهكذا يفتح الله تعالى على السابقين بالخيرات أنواراً من الفرقان يفرقون بها بين الحق والباطل.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٠، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٨٧ ، ١٣١.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٦٠، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ١٩٥، والبداية والنهاية ٩/ ٢٠١.

تورعه عن مزارع خيبر:

ومن ذلك ما جاء في رواية لابن عبد الحكم قال: وكان عمر بن عبد العزيز نظر في مزارعه فخرق سجلاتها حتى بقيت مزرعتا خيبر والسويداء فسأل عن خيبر من أين كانت لأبيه؟ قيل: كانت في نِحَل رسول الله ﷺ فتركها رسول الله ﷺ فيئًا للمسلمين ثم صارت إلى مروان أبيك، ثم أعطاكها أبوك، فخرق عمر سجلها وقال: أتركها حث تركها رسول الله ﷺ(1).

فهذا مثل على ورع عمر بن عبد العزيز واحتياطه بالبعد عن الشبهات، فحيث علم أن أصل مزرعة خيبر قد جعلها رسول الله ﷺ فيئًا للمسلمين، فإنه قد جعلها كذلك، مع أنه لم يبحث طريق وصولها إلى جده مروان.

تورعه عن حلي زوجته:

ومن ذلك خبر حُليٍّ زوجته فاطمة حيث قال لها: قد علمتِ حال هذا الجوهر، وما صنع فيه أبوك ومن أين أصابه، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين، وأنفق ما دونه، فإن خلُصْت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنَّه إليك، قالت له: افعل ما شئت ففعل ذلك، فمات رحمه الله ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك، فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه، فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه(2).

فهذا ابتلاء داخل بيت عمر حيث تذكَّر أن حلي زوجته فاطمة بنت عبد الملك قد أعطاه إياها أبوها، ولعله كان من مال المسلمين العام، فلم يسعه أن يبقيه بيدها وقد أخذ على نفسه أن يعيد إلى بيت مال المسلمين كل ما أُخذ منه بغير حق.

وقد كانت له مطيعة بارة، ثم تبين ورعها حين رد ذلك الحلي إليها أخوها يزيد فلم تأخذه.

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦١، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٩٠.

(2) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٢، وانظر الكامل لابن الأثير ٤/ ١٥٣.

لقد استطاع عمر بتوفيق الله تعالى أن يؤثر عليها وعلى بنيه، وأن يكوِّن أسرة عالية في الصلاح والتقوى رحمهم الله جميعًا.

تورعه عن صرف شيء من المال العام في الحج:

ومثل آخر من ورعه وسمو هدفه في هذه الحياة، فقد قال لمولاه مزاحم: إني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر دينارًا، قال: وما تقع مني؟ ثم مكث قليلا، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهز فقد جاء مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بني مروان، قال: اجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالا فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حرامًا فكفانا ما أصبنا منها.

فلما رأى عمر ثِقَل ذلك عليَّ قال: ويحك يا مزاحم، لا يكثُرنَّ عليك شيء صنعتُهُ لله، فإن لي نفسًا توَّاقة، لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة[1].

ففي هذا الخبر تورع عمر رحمه الله عن ذلك المال الذي لا يدري هل هو حلال أم حرام؟ ولم يرض أن ينفق منه في الحج كما كان قبل ذلك لا يرضى أن ينفق على نفسه من مال فيه شبهة، بل إن موضوع النفقة في العبادة أولى بالتحري والبعد عن الشبهات.

وفي آخر الخبر مثل من سمو تفكيره وعلو مقصده، حيث ذكر وصوله إلى أعلى قمة في الحياة الدنيا، وأن نفسه قد تاقت إلى ما هو أعلى من ذلك بكثير وهو الظفر بنعيم الجنة، فأصبح يسخِّر كل ما بيده من سلطان للوصول إلى الجنة، ولذلك كان قويًا في عدله، حازمًا في قراراته لأن هدفه الأعلى لا يحصل له إلا بذلك.

أما الذين يجعلون هدفهم منازل الحياة الدنيا فإنهم يترددون في إصدار القرارات ويتناقضون فيها بين الحين والآخر، لأنهم يراعون أمور الدنيا، وهي متقلبة بتقلب أبنائها.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٢، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٥٣.

تورعه عن دماء الناس وأموالهم:

هذا ومن نماذج تورعه عن دماء الناس وأموالهم ما جاء في كتابه إلى عدي بن أرطأة، عامله على البصرة حيث قال فيه: أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن قبَلَك عُمَّالاً قد ظهرت خيانتهم، وتسألني أن آذن لك في عذابهم، كأنك ترى أني لَك جُنَّة من دون الله، فإذا جاءك كتابي هذا فإن قامت عليهم بينة فخذهم بذلك، وإلا فأحلفهم دُبُر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختانوا من مال المسلمين شيئًا، فإن حلفوا فخل سبيلهم، فإنما هو مال المسلمين، وليس للشحيح منهم إلا جهد أيمانهم، ولعمري لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم، والسلام(١).

وهكذا كان عمر رحمه الله شديداً في محاسبة الولاة، حريصًا على أموال المسلمين، ولقد فهم والي البصرة أن مما يترتب على هذا المنهج أن يقوم بتعذيب العمال الذين ظهرت خيانتهم، فاستأذن أمير المؤمنين عمر في ذلك، فكان جوابه جواب الرجل الذي يخشى الله تعالى في دماء المسلمين وأعراضهم.

وقد أشار إلى نقطة مهمة وهي أن كل وال مسئول عن عمله وعن كل ما يقوم به من إحسان أو عقوبة، وأن صدور الأوامر من مسئول أعلى منه لا يسوغ وقوعه في الخطأ والتجاوز لأن المسئول الأعلى قد لا يعلم تفاصيل الأمر كما علمها هو.

ويبين في كتابه لذلك الوالي أنه إذا قامت البينة على مسئول بخيانة فيجب أخذه بذلك، وإن لم تقم عليه بينة فيكفي لبراءته ظاهرًا أن يحلف بعد صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما اختان من مال المسلمين شيئًا.

ثم يختم عمر كتابه ببيان ما ينتظره وينتظر الولاة من الوقوف للحساب بين يدي الله تعالى فيما إذا وقع منهم ظلم للآخرين، وفي هذا تذكير للمسئولين بأن يراقبوا الله سبحانه، ويتذكروا وقوفهم بين يديه للحساب وهذا يجعلهم يترددون كثيرًا قبل أن يقدموا على ثواب أو عقاب.

نماذج من تورعه عن المال العام:

ومن ذلك أنه وفد عليه بريد من بعض الآفاق، فانتهى إلى باب عمر ليلا فقرع الباب فخرج إليه البواب فقال: أعْلِم أمير المؤمنين أن بالباب رسولا من فلان

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٥، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦٨.

عامله، فدخل فأعلم عمر، وقد كان أراد أن ينام، فقعد وقال: إئذن له، فدخل الرسول فدعا عمر بشمعة غليظة فأججت ناراً، وأجلس الرسول، وجلس عمر فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد، وكيف سيرة العامل وكيف الأسعار، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء السبيل والفقراء، وهل أعطى كل ذي حق حقه، وهل له شاك وهل ظلم أحدًا؟

فأنبأه بجميع ما علم الرسول من أمر تلك المملكة، فلم يدع شيئًا إلا أنبأه به، كل ذلك يسأله فيحفي السؤال حتى إذا فرغ عمر من مسألته قال له: يا أمير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تُعْنَى بشأنه؟ قال: فنفخ عمر الشمعة فأطفأها بنفخته وقال: يا غلام عليٍّ بسراج، فدعا بفتيلة لا تكاد تضيء فقال: سل عما أحببت، فسأله عن حاله فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال: يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمرًا ما رأيتك فعلت مثله، قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك.

فقال: يا عبد الله إن الشمعة التي رأيتني أطفأتها من مال الله ومال المسلمين وكنتُ أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك الشمعة تَقِدُ بين يديٍّ فيما يصلحهم وهي لهم: فلما صرتُ لشأني وأمر عيالي ونفسي أطفأت نار المسلمين[1].

فهذا التصرف الذي قام به عمر بن عبد العزيز في غاية السمو من الورع، وفيه ملاحظة في الفصل بين حق النفس وحق المسلمين.

ولو تصور أيّ مسئول هذا الأمر لأدرك أن القليل جدًا من المسئولين يُحظَى بهذا التذكر السريع في أمر حقير كهذا، ثم القليل من هؤلاء الذي يتورع بهذه الدقة، فيجتنب الاستفادة من حق المسلمين العام في مثل هذا الأمر الصغير.

ويشبه هذا في حياة المسئولين استعمال الورق والأقلام والظروف ونحوها لصالح المسئول الخاص مما كان خاصًا بالعمل.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٥٥.

وقد يحتقر المسئول هذا الأمر ولا يُلقي له بالاً لعدم ظهور النقص في الحق العام بشكل واضح، ولكن المبدأ واحد في عدم جواز استخدام حق المسلمين العام في الشئون الخاصة، وسواء في أمر خطير أو في أمر حقير.

وأخرج محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال: قال عمر يا مزاحم بعني رَحْلاً لمصحفي، قال فأتاه برحْلٍ فأعجبه، قال: من أين أصبتَ هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين دخلتُ بعض الخزائن فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رحْلاً. قال: انطلق فقومْه في السوق. فانطلق فقوّموه نصف دينار فرجع إلى عمر فأخبره، قال: تُرانا إن وضعنا في بيت المال ديناراً أنسلم منه؟ قال: إنْما قوّموه نصف دينار. قال: ضَعْ في بيت المال دينارين.

وأخرج أيضًا من خبر عليّ بن مسعدة قال: حدثنا رياح بن عبيدة قال أخرج مسك من الخزائن فلما وضع بين يدي عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه، فقال له رجل من أصحابه: يا أمير المؤمنين ما ضرّك أن وجدتَ ريحه؟ فقال عمر: وهل يُبْتغى من هذا إلاّ ريحه؟

وأخرج أيضًا من خبر فُرات بن مسلم قال: كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبي في كلّ جمعة فعرضتُها عليه فأخذ منها قرطاسًا قدر شبر أو أربع أصابع بقي فكتب فيه حاجة له، فقلت: غفل أمير المؤمنين. فلمّا كان من الغد بعث إليّ أن تعالَ وجئْ بكتبك، فجئته بها فبعثني في حاجة، فلمّا جئت قال: ما آن لنا أن ننظر في كتبك بعدُ، قلتُ: لا إنْما نظرتَ فيها أمس. قال: خُذْها حتى أبعث إليك. فلمّا فتحتُ كتبي وجدتُ فيها قرطاسًا قدر قرطاسي الذى أخذ.

وأخرج أيضًا من خبر وُهَيب بن الورد قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز اتْخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل. قال وتقدّم إلى أهله: إيّاكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئًا من طعامها فإنّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل. فجاء يومًا فإذا مولاة له معها صحفة فيها غرفة من لبن فقال لها: ما هذا؟ قالت: زوجتك فلانة حامل كما قد علمتَ واشتهت غرفةً من لبن، والمرأة إذا كانت حاملاً

فاشتهت شيئًا فلم تُؤتَ به تخوّفت على ما في بطنها أن يسقط، فأخذتُ هذه الغرفة من هذه الدار. فأخذ عمر بيدها فتوجّه بها إلى زوجته وهو عالي الصوت وهو يقول: إن لم يُمْسك ما في بطنها إلا طعامُ المساكين والفقراء فلا أمسكه الله. فدخل على زوجته فقالت له: مالك؟ قال: تزعم هذه أنّه لا يُمسك ما في بطنك إلا طعام المساكين والفقراء، فإن لم يُمسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله. قالت زوجته: رُدّيه ويحك، والله لا أذوقه. قال: فردّته.

وأخرج من خبر عُبيد بن الوليد قال: سمعتُ أبي يذكر أنّ عمر بن عبد العزيز كان يسخّن له في مطبخ العامة ماءً يتوضأ به وهو لا يعلم، ثمّ علم بعد ذلك فقال: كم لك منذ أسختنموه؟ فقالوا: شهر أو نحوه. قال فألقى في مطبخ العامة لذلك حطبًا[١].

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر الحكيم بن عمر قال: شهدت عمر ابن عبد العزيز وأرسل غلامه يشوي بكبكبة من لحم، فعجل بها، فقال: أسرعت بها! قال: شويتها في نار المطبخ -وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم- فقال لغلامه: كُلْها يا بني فإنك رُزقتها ولم أُرزقها[٢].

فهذه الأخبار تفيد تورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن الاستفادة من مال المسلمين العام، وهي تبين ورعه عن أشياء صغيرة جدًا لا تلفت نظر أكثر الناس، لكنه لدقة إحساسه بالحرام والشبهات تنبه لها، فقدم بذلك أمثلة رائعة للورع أصبحت عبرة لأفراد الأمة من معاصريه والذين جاؤوا بعده رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

خوفه من الرياء والسمعة:

أخرج محمد بن سعد من خبر ميمون بن مهران قال: كنت في سمر عند عمر ابن عبد العزيز ليلة فتكلم فوعظ، قال: ففطن لرجل خذف بدمعته فسكت،

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٩٩ وانظر تاريخ دمشق ٤٥/٢١٤-٢١٩.

(٢) حلية الأولياء ٥/٢٩١.

فقلت: يا أمير المؤمنين عُدْ لمنطقك لعل الله أن ينفع بك من بلغه وسمعه، فقال: يا ميمون إن الكلام فتنة وإن الفعل أولى بالمرء من القول[1].

وهكذا سكت عن الوعظ حينما أحس بشيء من الإعجاب بالنفس لما رأى أن كلامه أبكى ذلك الرجل، وهذا يدل على كمال إخلاصه لله تعالى وقوة توحيده، وقد ذكر لميمون بن مهران أن الكلام فتنة، وذلك أن الإنسان قد يعجب بنفسه لما يرى من قوة تأثيره على الناس فيكون ذلك سببًا في نقص إخلاصه، حيث يتكلم ليراه الناس فيمدحوه ويتحدثوا عنه.

وفي هذا المعنى ما ذكر الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي من خبر سعيد ابن عبد العزيز قال: كان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع، وإذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي[2].

وكذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر نعيم بن عبد الله كاتب عمر بن عبد العزيز أن عمر بن عبد العزيز قال: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة[3].

مثل من حرصه على إخفاء عمله الصالح:

ذكر الشيخ عمر بن محمد الخضر الملاء من خبر رجاء بن حيوة قال: لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد: يا أمير المؤمنين! إن هذا المرائي -يعني عمر بن عبد العزيز- الذي مضى بالأمس قد أخذ كل ما قدر عليه من جوهر ثمين وجعله في بيتين، فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة وسألها عما أُخْبر به. فقالت: والله يا أخي إن عمر ما ترك سبدًا ولا لبدًا إلا ما في هذا المنديل من الثياب. فَحلَّهُ فوجد فيه قميصًا مرقوعًا ورداءً قشبًا، وجبَّة محشوة غليظة ذاهبة البطانة. قال:

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧١ وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٩ وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٨٤.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٥١.

(٣) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٩.

ليس عن هذا أسألك، إنما سألتك عن البيت المقفل. فقالت: والذى فجعني بأمير المؤمنين ما دخلت إلى ذلك البيت منذ ولّي عمر الخلافة، لعلمي أنّه كان يكره ذلك، وهذه مفاتيحه فانظر ما فيه، فإن كان ما يقال لك حقًا فحوّل ما فيه إلى بيت المال.

فجاء يزيد ومعه عمر بن الوليد والناس ففتحوا البيت الأول وإذا فيه كرسي من أدم وأربع آجرّات مبسوطات، وقمقم نصفه ماء. فقال عمر: أستغفر الله.

ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مسجدًا مفروشًا بالحصى وسلسلة معلقة بسقف البيت فيها كهيئة الطوق يدخل رأسه فيها- كان يجعله في رقبته إذا نعس في الصلاة -وصندوقًا مقفلاً. ففتح الصندوق فإذا فيه دراعة وثياب من شعر وعطاف من مسوح، فبكى يزيد وبكى الناس. واستغفر عمر -أي ابن الوليد- الله تعالى[1].

تورعه عن البناء:

قال ابن عياش: كانت لعمر مِرْقاتان يرقى من صحن داره إلى قعر بيته عليهما، فانقلعت إحدى المرقاتين فأتاها رجل من أهل بيته فأصلحها كراهية أن يشق على عمر، فلما جاء عمر ونظر إليها قال: من صنع هذا؟ قالوا: فلان قال: عليَّ به فلما جاء قال: ويحك يا فلان، أنفست على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة؟ والله لولا أن يكون فساد بعد إصلاح لغيرتها إلى ما كانت عليه[2].

تورعه عن قبول الهدية:

أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر تفاحًا فقال لو أن عندنا شيئًا من تفاح فإنه طيب؟ فقام رجل من أهله فأهدى إليه تفاحًا، فلما جاء به الرسول قال: ما أطيبه وأطيب ريحه وأحسنه، ارفع يا غلام واقرأ على فلان السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت عندنا بحيث تحب، قال عمرو بن مهاجر: فقلت له يا أمير المؤمنين ابن عمك رجل من أهل بيتك وقد

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ ٦٦٤-٦٦٥، وانظر البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٣.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٥٤.

بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، قال: إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية، وهي لنا رشوة(١).

مثل آخر من رده الهدية:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر يعقوب قال: سمعت أبي يحدث أن عمر بن عبد العزيز جاءه ثلاثون ألف درهم من مال بالبحرين، فجاءه الذي كان يقوم على طعام أهله، فقال: يا أمير المؤمنين قد جاءك الله بنفقة، قال: من أين؟ قال: من مالك الذي بالبحرين، جاءتك ثلاثون ألفًا، قال: فاسترجع عمر وقال: ادع لي مُزاحمًا، فلما جاءه مزاحم قال: أي مزاحم، ما رددتَ ذلك المال الذي جاءنا من البحرين في مال الله! قال مزاحم: سقط عليّ يا أمير المؤمنين، قال: فاردده وصل بهذا المال في بيت مال المسلمين. قال: فدخل عليه قَيّمُ ذلك المال فقال: يا أمير المؤمنين أعتق رقبتي من الرق أعتقك الله من النار، قال: فنظر إليه ثم قال: إنّما أنت وذاك المال من مال الله فلا سبيل إلى عتقك، قال: يا أمير المؤمنين جرّة زنجبيل مُربَّت كنت أهديها لك كلّ عام وقد جئت بها، قال: ائت بها، وقال: فأخرج منه عودًا فوضعه على شفتيه ثم قال: مَهْ، إذا شككت في الشيء فدعه، لا حاجة لي بجرتك(٢).

مثل من إجلاله رسول الله ﷺ:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبد الله بن يونس قال: سمعت بعض شيوخنا يذكر أن عمر بن عبد العزيز أُتِيَ بكاتب يخط بين يديه، وكان مسلمًا وكان أبوه كافرًا نصرانيًا أو غيره، فقال للذي جاء به: لو كنت جئت به من أبناء المهاجرين! قال: فقال الكاتب: ما ضرَّ رسول الله ﷺ كفر أبيه، قال فقال عمر: وقد جعلته مثلا! لا تخط بين يدي بقلم أبدا(٣).

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٤، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢٠.

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٢١، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٤٠.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٢٨٣-٢٨٤.

أمره والي المدينة بالاقتصاد في الوقود والورق:

ومن أمثلة اقتصاده وحفاظه على مال المسلمين العام ما جاء في كتابه لأبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم والي المدينة وقد جاء فيه: أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر فيه أنه كان يقطع لمن كان قبلك من أمراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به في مخرجهم، فابتليتُ بجوابك فيه، ولعمري لقد عهدتك يا ابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمري أنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك والسلام.

وكتب إليه أيضًا: أما بعد فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر أنه كان يُجرَى على مَن كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا، فابتليت بجوابك فيه، فإذا جاءك كتابي هذا فأرِقَّ القلم، واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أُضِرَّ ببيت مالهم، والسلام عليك[1].

فهذان مثلان عاليان في الاقتصاد، فالمسئول مؤتمن على أموال الدولة، فلا يجوز له أن يُسرف حتى في الأشياء الرخيصة الثمن كالورق والأقلام ونحوها، لأن القليل مع القليل كثير، وقبل ذلك لأن الذمة لا تبرأ إلا في الاقتصار على ما يؤدي الغرض المطلوب.

وما أشار إليه عمر في هذين الكتابين يُعدُّ توجيهًا سديدًا لكل مسئول، بحيث يكون في ذهنه لزوم الاقتصاد في أموال الدولة، من أجل أن تصرف على مستحقيها، بدلا من أن تضيع في معاملات طويلة تستنفد وقتا طويلا وتكاليف كثيرة وهي يمكن أن تؤدَّى في أقل من ذلك.

إن عدم الشعور بوجوب حفظ مال الدولة -الذي هو مال المسلمين العام يُعدُّ نوعًا من التفريط في الواجب، وقد يقود صاحبه إلى أنواع من المآثم التي قد لا يحسب لها حسابًا.

---

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٤-٦٥، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦٦، وحلية الأولياء ٥/ ٣٠٧.

أما إذا شعر بأن كل فرد من أفراد المسلمين له حق في ذلك المال الذى أصبح مسئولاً عنه، وأن الله تعالى سيحاسبه على القليل والكثير من ذلك إذا صرفه في غير حقه، فإن ذلك يجعله يفكر كثيرًا في حفظ ذلك المال، وعدم صرفه إلا في وجوهه المشروعة، وأن يجتهد في الاقتصاد في ذلك، بحيث يؤدي العمل الكثير بالإنفاق القليل.

وعظه مسلمة في الاقتصاد في المأكل:

ومن أمثلة زهده وتزهيده في الدنيا ما رُوي عن مسلمة بن عبد الملك قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز بعد الفجر في بيت كان يخلو فيه فلا يدخل عليه أحد، فجاءت جارية بطبق تمر صيحاني -وكان يعجبه التمر- فرفع بكفيه فقال: يا مسلمة أتُرى رجلا لو أكل هذا ثم شرب عليه من الماء -فإن الماء على التمر يطيب- أكان يُجزيه إلى الليل؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين كان كافيه دون هذا حتى ما يبالي أن لا يذوق طعامًا غيره، قال: فعلامَ تدخلُ النار؟

قال مسلمة: فما وقعَتْ مني موعظة ما وقعت مني هذه(١).

فهذه موعظة بليغة من عمر تأثر بها مسلمة بن عبد الملك، وإنما قصد عمر نهي مسلمة عن الإسراف في الطعام، وكان ممن اشتهر بذلك.

والإسراف في الطعام قد نهى الله تعالى عنه وكذلك في اللباس ونحوه من متاع الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

حواره مع عمته في رد مخصصاتها:

ومن ذلك ما ذكره ابن عبد الحكم رحمه الله قال: ولما ولي عمر بن عبد العزيز أتت عمة له إلى فاطمة امرأته فقالت: إني أريد كلام أمير المؤمنين، قالت لها: اجلسي حتى يفرغ فجلست، فإذا بغلام قد أتى فأخذ سراجًا.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/١٥٧، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ١٨٤-١٨٥.

فقالت لها فاطمة: إن كنت تريدينه فالآن، إذا كان في حوائج العامة كتب على الشمع، وإذا صار إلى حاجة نفسه دعا بسراجه، فقامت فدخلت عليه، فإذا بين يديه أقراص وشيء من ملح وزيت، وهو يتعشى، فقالت: يا أمير المؤمنين أتيت بحاجة لي ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي.

قال: وما ذاك يا عمة؟ قالت: لو اتخذت لك طعامًا ألين من هذا، قال: ليس عندي يا عمة، ولو كان عندي لفعلت، قالت: يا أمير المؤمنين كان عمك عبد الملك يُجري عليَّ كذا وكذا، ثم كان أخوك الوليد فزادني، ثم وليت أنت فقطعته عني.

قال: يا عمة إن عمي عبد الملك وأخي الوليد وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين، وليس ذلك المال لي فأعطيكه، ولكني أعطيك مالي إن شئت، قالت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: عطائي مائتا دينار فهي لك، قالت: وما يبلغ مني عطاؤك؟ قال: فليس أملك غيره يا عمة، قالت[1]: فانصرفَتْ عنه[2].

في هذا الخبر مواقف إسلامية رائعة من عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فهو أولا يضرب مثلا عاليًا في الورع حيث لا يستعمل في حوائجه الخاصة شيئًا من مال المسلمين العام، وقد تقدم خبر يشابه ذلك.

وهو ثانيًا يضرب مثلا عاليًا في الزهد حيث اكتفى بتلك النفقة القليلة والطعام الزهيد، الذي أشفقت عليه منه عمته فبدأت بلومه على ذلك.

ثم هو ثالثًا يضرب مثلا عاليا في الحزم والقوة في تطبيق الحق وتنفيذ العدل حتى مع أقاربه الكبار حيث قطع عنهم المخصصات التي كانت تصرف لهم، ولم يثنه عن عزمه في ذلك كثرة شكواهم وإلحاحهم عليه في الطلب.

ولقد أبدى لعمته استعداده لمنحها ماله الخاص مع أنه لا يملك غيره، فهو الأمر الذي يوقن بأن الله تعالى لن يسأله عنه، أما مال المسلمين العام فإنه مسئول عنه أمام الله تعالى يوم القيامة، فكيف يجامل أقاربه مهما كان حقهم وقدرهم ليواجه الحساب يوم القيامة ولا حجة له.

---

(١) يعني فاطمة بنت عبد الملك.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ٦٣.

ولكن هذه المرأة -مع كبر سنها- زهدت في عطاء عمر لأنه لا يساوي شيئًا يُذكر أمام مخصصها الذي قُطع، مع أن هذا العطاء قد خُصِّص من أهل النظر لكفاية بيت من بيوت المسلمين، وذلك لأنها تعودت على نمط من الحياة لا يغطى تكاليفه إلا المال الكثير.

وهكذا تكون طبيعة النفوس إذا ألفت على الإنفاق الكثير فإنها لا تستطيع أن تألف على القليل.

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

رفضه أن يوصي لأولاده بشيء:

ومن ذلك ما ذكره أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم رحمه الله تعالى قال: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم! فلما سمع مقالته قال: أجلسوني فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقًا هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئًا لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية فإن وصيِّي فيهم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله، ادعُ لي بَنيّ، فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسي فتيةٌ تركتهم عالة لا شيء لهم -وبكي-: يا بَنِيّ إني قد تركت لكم خيرًا كثيرًا، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقًا، يا بَنِيّ إني قد مَثُلتُ بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إليّ، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله[1].

وقد جاء في إحدى الروايات أن الراوي قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر[2].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/١١٥-١١٦، وانظر تاريخ دمشق ٢٤٥/٢٥٢، وحلية الأولياء ٥/٣٣٣.

(٢) هامش السيرة المذكورة/١١٦.

في هذا الخبر مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى في وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمَّل ذمته شيئًا لا يدري على أي وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل، فيلحقه بذلك شيء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه.

لقد تصور في معاملة أولاده وقرعه بين أمرين: أن يغنيهم في الحياة الدنيا، وذلك بمنحهم شيئًا من المال العام للمسلمين فيتعرض بذلك للفحات النار، أو أن يكتفي بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالي من الشبهات فيتعرض بذلك لنفحات الجنة، فاختار الطريق الأخير مع ثقته بالله تعالى أنه لن يضيعهم، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة، وأكرِمْ بذلك من تركة!!

إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة.

وفي قوله «إنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله» لفتة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذًا من قول الله تعالى ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن يبذل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى، وليس المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتنوا من بعده، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عونًا لهم على معصية الله تعالى.

وصيته لمسلمة بالتحري في الأموال:

ومن أمثلة تحري أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحلال وبعده عن الشبهات ما ذكره ابن عبد الحكم قال: ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرضه الذي مات فيه، فأوصاه عمر بأن يحضر موته وأن يلي غسله وتكفينه، وأن يمشي معه إلى قبره، وأن يكون ممن يلي إدخاله في لحده، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأي منزل تتركني، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنيا، فقال له

مسلمة: فأوص يا أمير المؤمنين، قال: مالي من مال فأوصي فيه، قال مسلمة: هذه مائة ألف دينار فأوصِ فيها بما أحببت، قال: أوَخير من ذلك يا مسلمة؟ أن تردها من حيث أخذتها، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيرًا يا أمير المؤمنين والله لقد ألَنْتَ لنا قلوبًا قاسية، وجعلت لنا ذكرًا في الصالحين(١).

ففي هذا الخبر يوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحري في اكتساب المال، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالا، بل لابد من التحري في كسبه، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقيه، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه.

اعتباره بزهد النبي ﷺ:

قال الحافظ ابن الجوزي: وعن عمرو بن مهاجر قال: كان متاع رسول الله ﷺ عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في بيت ينظر إليه كل يوم قال: وكان ربما اجتمعت إليه قريش فأدخلهم ذلك البيت ثم استقبل ذلك المتاع فيقول: هذا ميراث من أكرمكم الله وأعزكم به، قال وكان سريرًا مرمولا بشريط ومرفقة من أدم محشوة بليف وجفنة وقدحًا وقطيفة من صوف كأنها جرمقانية(٢)، قال: ورَحَى وكنانة فيها أسهم وكان في القطيفة أثر وسخ رأسه، فأصيب رجل فطلبوا أن يغسلوا بعض ذلك الوسخ فيسعط به، فذُكر ذلك لعمر فسُعط فبرأ(٣).

من أمثلة زهده:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر مسلمة بن عبد الملك قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه، فإذا عليه قميص وسخ فقلت لامرأته فاطمة: اغسلوا قميص أمير المؤمنين فقالت: نفعل ذلك إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله فقلت: يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين! فقالت: والله ماله قميص غيره(٤).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) نسبة إلى الجرامقة وهم من العجم يصنعون هذه القطائف.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٨٥.

(٤) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١١.

تربيته أولاده على التقشف والزهد:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر يعقوب عن أبيه أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أتى إلى أبيه وهو خليفة يستكسي أباه، فقال: يا أبت اكسني، فقال: اذهب إلى الخيار بن رياح البصري فإن لي عنده ثيابا فخذ منها ما بدا لك، قال: فذهبت إلى الخيار بن رياح فقلت: إني استكسيت أبي فأرسلني إليك وقال: إن لي عند الخيار بن رياح ثيابا، فقال صدق أمير المؤمنين، فأخرج إليه ثيابا سنبلانية أو قطرية، فقال: هذا ما لأمير المؤمنين عندي فخذ منها ما بدا لك، قال عبد الله: ما هذا من ثيابي ولا من ثياب قومي، فقال: هذا ما لأمير المؤمنين عندي، فرجع عبد الله إلى أبيه عمر فقال: يا أبتاه استكسيتك فأرسلتني إلى الخيار بن رياح فأخرج لي ثيابا ليست من ثيابي ولا من ثياب قومي. قال: فذاك ما لنا عند الرجل، فانصرف عبد الله حتى إذا كاد يخرج ناداه فقال: هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم، قال: نعم يا أبتاه، فأسلفه مائة درهم فلما خرج عطاؤه حوسب بها فأخذت منه(١).

موعظة المنصور بسيرة عمر المالية:

قال الحافظ ابن الجوزي: وبلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عظني. قال: بما رأيت أو بما سمعت؟ قال: بما رأيت قال: مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله وخلَّف أحد عشر ابنا وبلغت تركته سبعة عشر دينارًا كُفِّن منها بخمسة دنانير واشتُري له موضع قبره بدينارين وقُسم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهمًا، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنا، فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف. ورأيت رجلا من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلا من ولد هشام يُتصدق عليه(٢).

وإن في هذا الخبر لعبرة للمعتبرين، حيث تحولت حال أبناء عمر بن عبد العزيز الذين لا يملك الواحد منهم عشرين درهمًا إلى أن ملكوا الألوف، بينما تحولت

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٣٣٥.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٥٤.

حال أبناء هشـام بن عبد الملك الذين يملك الواحد منهم مئات الألوف إلى أسوأ حال، وذلك من آثار صلاح عمر بن عبد العزيز ومن بركة دعائه الصالح لأولاده، فإن صلاح الآباء يكون خيرًا وبركة على أبنائـهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فمن أدلة ذلك خبـر الغلامين اللَّذين حفظ الله تعالى لهـما رزقهمـا بسبب صلاح أبيهما كمـا جاء في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وأما في الآخرة فإن الله تعالى يُلحق بفضله وكرمه ذرية الصالحين بهم في الجنة كما جاء في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وإن في ذلك لبشرى لمن وُفقوا بآباء صالحين، وذلك مما يدفعـهم إلى الاستقامة على ما كان عليه آباؤهم حتى يسعدوا في دنياهم وآخرتهم.

دقة موازنته بين الدنيا والآخرة:

ذكر الحافظ ابن الجـوزي من خبر جزيمة أبي مـحمد بن العابد أن عمـر بن عبد العزيز قال: ما أعطيت أحدًا مالا إلا وأنا أستقله، وإني لأستحي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بالدنيا، فـإذا كان يوم القيامة قيل لي: لو كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل[1].

وهذا يدل على اهتمامه بالجنة وتعظيمـه إياها وأنه يرى أن الدنيا لا تساوي شيئًا عندها، فلذلك يرى أن من تكرم على أخـيه بسؤال الجنة له لا ينبـغي له أن يبخل عليـه بالدنيا مـهمـا كان حـجم الطلب منهـا، وفي ذلك عـبرة للمـسلمين الذين يستهينون بطلب نعيم الآخرة الخالد، بينما يبدون اهتماما كبيرًا بطلب متاع زائل.

أمثلة من زهده وإصلاحه:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر الحكم بن عمر الرعيني قال: شهدت عمر حين جاءه أصحاب المراكب يسألونه العلوفة ورزق خدمها. قال وكم هي؟ قالوا هي كذا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣٣.

وكذا. قال أبعث بها إلى أمصار الشام يبيعونها فيمن يريد وأجعل أثمانها في مال الله عز وجل، تكفيني بغلتي هذه الشهباء، وجاءه صاحب الرقيق يسأل أرزاقهم وكسوتهم وما يصلحهم، فقال عمر: كم هم؟ قالوا: هم كذا وكذا ألفا، فكتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إليَّ كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد وأمر لكل اثنين من الزَّمنَى بخادم، وفَضُل من الرقيق فكتب: أن ارفعوا إليّ كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية[1].

فلينظر العقلاء وليوازنوا بين عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وعهود من قبله من الأمراء بالنسبة لهؤلاء المملوكين الذين خُصِّصوا للخدمة ونحو ذلك، كم هي نفقاتهم وهم قد بلغوا عدة آلاف؟ وكم هو النقص الذي يحصل على بيت مال المسلمين منهم؟! ثم ليعتبروا بما قرره عمر بن عبد العزيز من التخلي عنهم وتوزيعهم على المسلمين من أصحاب العاهات واليتامى ليقوموا بخدمتهم، فهو بهذا وفَّر نفقاتهم الكبيرة على بيت المال، وفي الوقت نفسه نفع بهم أعداداً كثيرة من المسلمين هم بحاجة إليهم، فهكذا تكون الاستقامة، وهكذا تكون العدالة!!

مثل من خشيته وموقف لأبي قلابة:

أخرج الإمام أحمد من خبر حميد الطويل أبي عبيدة الخزاعي قال: لما استخلف عمر بن عبد العزيز بكى وقال: يا أبا قلابة هل تخشى علي؟ قلت: كيف حبك الدرهم؟ قال: لا أحبه، قال: لا تخف إن الله عز وجل سيعينك[2].

فهذا فهم جيد من أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي رحمه الله تعالى، فقد ذكر أهم أسباب الفتنة وهو حب المال، فإن حب المال يحمل صاحبه على اكتسابه من طرق الحرام والشبهات، وإذا وقع المسئول في ذلك سارع إلى منافسته ومحاولة احتوائه أمثاله من أهل الدنيا، فيضطر إلى إنفاق المال على الكبراء من هؤلاء الذين هم خبراء به لكيلا يفضحوه أمام الناس، فيكون الجميع شركاء في نهب أموال الأمة وحرمان أصحاب الحقوق.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ١٣٠.

(٢) الزهد/ ٣٠١.

نهاية عمر بن عبد العزيز وما في ذلك من مواقف:

ذكر ابن سعد من خبر محمد بن قيس قال: حضرت أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أول مرضه، اشتكى لهلال رجب سنة إحدى ومئة، فكان شكوه عشرين يومًا، فأرسل إلى ذمي ونحن بدير سمعان، فساومه موضع قبره، فقال الذمي: يا أمير المؤمنين إنها لخيرة أن يكون قبرك في أرضي، قد حللتك، فأبى عمر حتى ابتاعه منه بدينارين، ثم دعا بالدينارين فدفعهما إليه[1].

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: كان قد شدد على أقاربه وانتزع كثيراً مما في أيديهم فتبرموا وسموه، فروى معروف بن مشكان عن مجاهد قال قال لي عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس في؟ قلت: يقولون إنك مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلامًا له فقال له ويحك ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتُها وعلى أن أعتق، قال: هات الألف، فجاء بها. فألقاها عمر في بيت المال. وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[2].

فهذا مثل عجيب في العفو، حيث عفا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن غلامه الذي وضع له السم وتسبب في قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة، ولكنه يوقن بأن ما عند الله خير وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على العفو، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يأثم ولكنه لا يحصل على أجر العفو، ونظرًا إلى أغلى شيء عنده في هذه الحياة أن يرتفع رصيده من الحسنات فإنه قد فضل العفو على الانتصار للنفس.

ومما جرى منه في مرضه ما أخرجه محمد بن سعد من خبر أيوب السختياني قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة فإن قضى الله موتًا دُفنتَ في الموضع الرابع مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، قال: والله لأن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار فإني لاصبر لي عليه أحب إليَّ من أن يعلم الله تعالى من قلبي أني أراني لذلك أهلا[3].

---

(1) طبقات ابن سعد ٥/٤٠٦.

(2) تذكرة الحفاظ ١/١٢١.

(3) طبقات ابن سعد ٥/٤٠٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/١٤٨.

فهذا مثال على خشيته العظيمة وتواضعه الكبير رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي زيد الدمشقي قال: لما ثقل عمر بن عبد العزيز دُعي له طبيب فلما نظر إليه قال: الرجل قد سُقي السم، ولا آمن عليه الموت. فرفع عمر بصره فقال: ولا تأمن الموت أيضًا على من لم يسق السم؟ قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم قد عرفت حين وقع في بطني، قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك، فقال ربي خير مذهوب إليه والله لو علمت أن شفاي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته. اللهم خِرْ لعمر في لقائك، قال: فلم يلبث أيامًا حتى مات(١).

وأخرج ابن سعد من خبر عمرو بن عثمان قال: مات عمر بن عبد العزيز لعشر ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، ومات بدير سمعان(٢).

سؤال الفقهاء عن حال عمر في بيته:

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من خبر وهيب بن الورد قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفي جاء الفقهاء إلى امرأته يعزّونها به فقالوا لها: جئناك نعزيك بعمر، فقد عمت مصيبته الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر، كيف كانت حاله في بيته؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله، فقالت: والله ما كان بأكثركم صلاة ولا صياما، ولكني والله ما رأيت عبدًا لله قط كان أشد خوفًا لله من عمر، والله إن كان ليكون في المكان الذي ينتهى إليه سرور الرجل بأهله، بيني وبينه لحاف فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء ثم ينشج، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه التي بين جنبيه، فأطرح اللحاف عني وعنه رحمة له، وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سرورًا منذ دخلنا فيها(٣).

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز/ ٢٣٩.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ٤٠٧-٤٠٨.
(٣) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٣٥-٢٣٦، وأخرج نحوه الإمام أحمد في الزهد/ ٢٩٩.

من ثناء العلماء على عمر:

من ذلك ما أخرجه ابن عساكر من خبر حماد بن واقد قال: سمعت مالك بن دينار يقول: يقولون مالك بن دينار زاهد![1] أيُّ زهد عند مالك وله جبة وكساء!! إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها[2].

ثناء ملك الروم عليه:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر محمد بن معبد أن عمر بن عبد العزيز أرسل بأسارى من أسارى الروم ففادى بهم أسارى من أسارى المسلمين، قال: فكنت إذا دخلت على ملك الروم فدخلَتْ عليه عظماء الروم خرجت، قال: فدخلْتُ يومًا فإذا هو جالس في الأرض مكتئبًا حزينًا، فقلت: ما شأن الملك؟ قال: وما تدري ما حدث؟! قلت: وما حدث؟ قال: مات الرجل الصالح، قلت: من؟ قال: عمر ابن عبد العزيز، قال: ثم قال ملك الروم: لأحسب أنه لو كان أحد يحيى الموتى بعد عيسى ابن مريم عليه السلام لأحياهم عمر بن عبد العزيز، ثم قال: لست أعجب من الراهب أغلق بابه ورفض الدنيا وترهَّب وتعبَّد، ولكن أتعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها ثم ترهب[3].

* * *

---

(١) يعني نفسه.

(٢) تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٠٩، وانظر حلية الأولياء ٥/ ٢٥٧.

(٣) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٠، وأخرج نحوه ابن عساكر -تاريخ دمشق ٤٥/ ٢٦١-٢٦٢، وانظر سير أعلام النبلاء ٥/ ١٤٢، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٢٤٩.

فهرس المصادر والمراجع

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية/ لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي/ الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت
- الإصابة في تمييز الصحابة/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر العسقلاني»/ الناشر: مطبعة مصطفى محمد بمصر.
- البداية والنهاية/ للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.
- تاريخ مدينة دمشق/ للحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله «ابن عساكر»/ الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) للحافظ محمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- تذكرة الحفاظ/ للحافظ أبي عبد الله شمس الدين الذهبي/ الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ لأبي حفص عمر الخضر الملاء/ الناشر: مؤسسة الرسالة.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني/ الناشر: مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة في مصر.
- الزهد/ للإمام أحمد بن حنبل الشيباني/ الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.
- سنن أبي داود/ للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي/ الناشر: محمد علي السيد -حمص.
- سيرة عمر بن عبد العزيز/ لأبي محمد عبد الله بن عبد الحكم/ الناشر: دار العلم للملايين.
- سيرة عمر بن عبد العزيز/ لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ الناشر: دار الفكر.

- سير أعلام النبلاء/ للإمام محمد بن أحمد الذهبي/ الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت.
- صحيح البخاري/ للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري مع شرحه فتح الباري/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في القاهرة.
- صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابوري/ الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- الطبقات الكبرى/ للمؤرخ محمد بن سعد بن منيع/ الناشر: دار صادر في بيروت.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير/ للحافظ أبي الفتح محمد بن سيد الناس/ الناشر: دار المعرفة في بيروت.
- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني/ لأحمد بن عبد الرحمن البنا/ الناشر: دار الحديث في القاهرة.
- فتوح البلدان/ لأبي العباس أحمد بن يحيى البلاذري/ الناشر: مؤسسة المعارف في بيروت.
- الكامل في التاريخ/ للمؤرخ أبي الحسن بن أبي الكرم الشيباني «ابن الأثير»/ الناشر: دار الكتاب العربي -بيروت.
- المسند/ للإمام أحمد بن حنبل الشيباني/ الناشر: المكتب الإسلامي ودار صادر -بيروت.
- مشكاة المصابيح/ لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي/ الناشر: المكتب الإسلامي.
- المغازى/ للمؤرخ محمد بن عمر الواقدي/ الناشر: عالم الكتب- بيروت.
- الموطأ/ للإمام مالك بن أنس/ الناشر: دار احياء التراث العربي.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ للمؤرخ جمال الدين يوسف بن تَغْري بَرْدي الأتابكي/ الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي- والمؤسسة المصرية العامة للتأليف.

الفهرس